ياسر عبد الله

رواية

حكايات الصولي



حكايات الصولي

حكايات الصولي

ياسر عبد الله

الإصدار الأول

القاهرة – يوليو ٢٠١٤

Twitter: @yasserigo

البريد الإلكتروني : yalaeg@gmail.com

الغلاف: فوتوغرافيا ياسر عبد الله

التنسيق الداخلي : باستخدام الخط الأميري (www.amirifont.org)

حكايات الصولي

*

رواية

*

ياسر عبد الله

*

إلى

ألكسندرا يونكِه

" حسبت أني حكمت نفسي

فتأسيت على ما مضى

لكنّ شيئًا واحدًا أعلمه

لستُ أدري من أنا "

جلال الدين الرومي

" وقال لي اكتب من أنتَ لتعرف من أنتَ فإن لم تعرف من أنتَ فما أنت من أهلِ معرفتي "

النفري

افتتاحية

أو في البدء كانت النهاية

١

لا تبحثوا عنه فقد اختفى .

ولو اطلعتم الآن على مسكنه ستجدونه كما كان دومًا؛ الجدران، الأبواب، الحروف الملتوية المتشابكة المحفورة على سقفه، الشباك الصغير الموارب ذو الشراعتين بخشبهما الذائب الذي طالما أطل منه على برج الكنيسة القديمة وناجى ناقوسه المعلق .

وفي المنتصف سريره مسجيٌّ عليه ملاءة بيضاء إذا رأيتها حسبتها قاعًا صفصفًا، وحسبت أن من تحتها سردابًا موصلاً لقعر الجحيم، وملابسه مبعثرة هنا وهناك، وكتبه وأقلامه وأوراقه .

تركها جميعًا حين اختفى .

٢

أتم مهمته، عاد بضع خطوات إلى الخلف ونظر إلى الآخر الجالس على كرسيه خلف المكتب وابتسم .

مد يده، نزع عن رأسه القلم، استدار ناحية الباب وخرج .

خطا خطوته الأولى فتعثر في سجادة الصالة، سقط برأسه على طاولة خشبية فأسقط فازة خزفية، ارتطمت بالأرض بعنف ولم تتكسر.

نظر من شراعة الباب الحديدي المشغول فرأى نورًا ساقطًا على وجهه من المصعد الخشبي القديم النازل من الأعلى، تأنى حتى عبر المصعد ثم تسلل إلى الخارج .

مضى دون أن يلحظه أحد، نظر في وجوه الجميع فوجد جميع الوجوه باسمة .

أخرج من جيبه القلم فرأى رأسه منتصبة مسننة، حينذاك رن هاتفه .

هي الغائبة أتاه صوتها، قالت أنها في حاجة إليه ولو لم تلقاه ستلقى حتفها، سألها أين يأتيها فقالت سآتيك أنا، ومضى إلى منزله .

٣

جاءته، أطعمته الطعمة الأولى فلم يشبع، كانت غائبة منذ فترة و كان شوقهما معولاً عليه لا يهدأ بالوصال .

أطعمته الطعمة الثانية فلم يشبع فأطعمته الطعمة الثالثة، ورأى منزله يتحول ورآها تتحول، رقد فوق ظهره ورقدت فوقه، انطبقت عليه تمام الانطباق، أصابع يدها فوق أصابع

يده، شعرها الأحمر على شعره الأسود، وثدياها على صدره، التفت الساق بالساق وانفتح السرير من تحتهما وغابا في الضياء .



منى

أو كيف بدأت الحكايات ؟

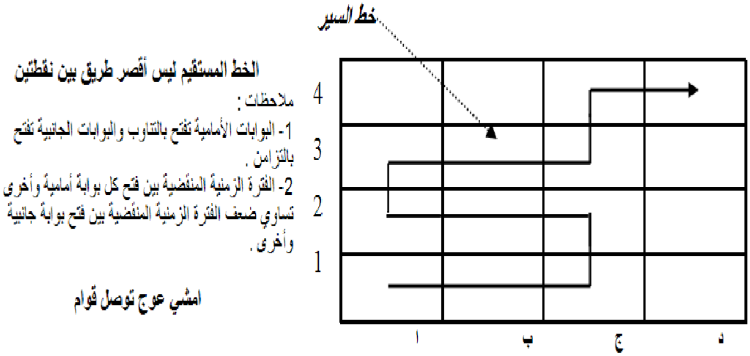
٤

حين خرجتُ من منزلي لمحت ظلَ جسد أنثويٍ مستلقٍ في سرير غرفتي الداخلية، وحروفاً منقوشة على سقفي .

بالأمس تلقيت رسالة على بريدي الالكتروني من إحداهن تطلب لقاءً على وجه السرعة، وذيلتها بعنوان نقلته في ورقة حفظتها في جيبي، ولم أدر شيئًا عن صاحبة الرسالة سوى اسمها الأول المكتوب بحروف لاتينية **Nourah** .

حين وصلت إلى مربع المباني الذي ذكرته في رسالتها استقبلني حارس يجلس في كشك زجاجي مربع الجدران، فتح نافذته وناولني ورقة وعاد وأغلق نافذة الكشك .

كان بالورقة مربع مقسمٌ إلى ستة عشر قسمًا وبجانبه كتابة



نظرت إلى الورقة و تمعنت في سطورها فلم أفهم شيئًا، خبّطتُ للحارس على زجاج الكشك فلم يفتح، أعدت الخبط بقوة أكثر فلم يفتح، كأنه قد رسخ تمثالاً حجريًا وهذا قفصه الزجاجي .

على مدخل مربع المباني لوحة أكبر قرأت ما عليها ففهمت، كان كل مربع مفصولاً عن الآخر ببوابة جانبية و أخرى أمامية، البوابات الأمامية تفتح بالتناوب، تفتح بوابة فتغلق أخرى، والفترة الزمنية المنقضية بين فتح بوابة أمامية وأخرى هي ضعف الفترة الزمنية المنقضية بين فتح بوابة جانبية وأخرى، والبوابات الجانبية تفتح بالتزامن، ولاختصار الوقت يجب السير كفرس الشطرنج على شكل حرف L، بحيث أعبر كل مرة بوابة جانبية ثم أخرى جانبية فتكون البوابة الأمامية للمربع الذي وصلته قد فتحت، فاعبر منها للمربع الآخر ثم إلى بوابة جانبية أخرى ثم أخرى جانبية فأخرى أمامية، عندها يكون الزمن المنقضي أقل من اللازم لعبور بوابتين أماميتين رغم أن المسافة المقطوعة تساوي ثلاثة أضعاف المسافة المقطوعة في عبور بوابتين متتاليتين، في مربع المباني ذلك لا يتناسب الزمن المنقضي بأي صورة من الصور مع المسافة المقطوعة .

كان المبنى الذي ذكرته نورا في رسالتها يقع في المربع الرابع من الصف الرابع، المربع د٤ حسب نظام الترقيم، حيث يشير حرف الدال إلى رقم العمود و يشير رقم ٤ إلى رقم الصف .

سرت في خطٍ متعرجٍ لأوفر الزمن، عبرت يميناً من المربع أ١ الذي دخلته عبر بوابته الجانبية إلى المربع ب١ ثم إلى المربع ج١ وحين وصلته كانت بوابته الأمامية قد فتحت.

عبرت من المربع ج١ عبر بوابته الأمامية إلي المربع ج٢ ومنه عبر بوابته الجانبية إلى المربع ب٢ ثم إلى المربع أ٢، وحين وصلته كانت بوابته الأمامية قد فتحت .

من المربع أ٢ عبر بوابته الأمامية عبرت إلى المربع أ٣ ، ومنه عبر بوابته الجانبية إلى المربع ب٣ ثم إلى المربع ج٣ وعندما وصلته كانت بوابته الأمامية قد فتحت .

عبر بوابته الأمامية عبرت إلى المربع ج٤ ومن بوابته الجانبية وصلت إلى المربع د٤، وحين وصلت كنت قد وفرت فترتين زمنيتين عما لو كنت قد سرت في خطٍ مستقيم .

وصلت المبنى الذي وصفته نورا في رسالتها لي، طرقت الباب الحديدي فانفتح، دخلته فأغلق لكني لم أجد أحدًا .

كان الباب يفتح على بهو واسع جدرانه عاليةً عاليةً لها نوافذ مستطيلة زجاجية في آخرها، رغم حجمها الهائل لا تنفذ ضوء الشمس .

البهو يدور حول عمود مستطيل يقع على يسار الداخل، وبالعمود مصعدان في كل ضلع.

درت حول الضلع الأول يسارًا بحيث أصبح المدخل خلفي ولم أر أحدًا، ويسارًا درت حول الضلع الثاني ولم أر أحدًا، وحول الثالث وحول الرابع، وعدت إلى نقطة البدء، ولا أحد .

على الحائط المواجه لي بان باب موارب لحجرة، بدا منه ظل سرير خشبي واطئ مبعثرة ملاءته، وكنت بالبيجامة وفي قدمي شبشب بإصبع واحد .

هل استدعتني نورا برسالتها أم أني قد فتحت عينيّ فوجدت حالي في ذلك المبني واخترع ذهني تلك الحكاية إكمالاً لهلاوس النوم الليلي ؟!، كنت أحب الهلاوس وكثيرًا ما مارستها عن عمد، كيف كنت أريدها حين أراها؟ ، ربما بنية العينين والشعر، بيضاء ممشوقة القوام تقصر عن قامتي بقليل، بشفتين ملفوفتين لونهما وردي، ناديت باسمها فلم يجب أحد، ناديت مرة أخرى فجاوبني الصدى، ناديت حتى انقطعت أنفاسي و سقطت مغشيًا عليّ .

حين أحسست بمن يخنقني بشدة أفقت، وجدت نفسي مرتديًا بدلة كاملة وتحت ياقة قميصي رابطة عنق معقودة بإحكام، أمامي طاولة خشبية طويلة عليها أربعة جلوس، وأنار البهو ضوء الشمس الداخل من الخارج، وفوق الجلوس لوحة معلقة مكتوب عليها الاستقبال، انفتح المصعدان من خلفي فخرج أناس ودخل آخرون، وسألت الجلوس عن نورا فلم يعرفها أحد .

خلف الأربعة جدارٌ عليه مرايا رأيت فيها روحي مهندمًا، مصفف الشعر مُجّلِه، سألتهم عنها مرة أخرى وصحت باسمها مادًا الألف الأخير " نوراهـ " فلم يعرفوها مرة أخرى .

قال لي من يقف بجانبي " اتفضل معايا، هي في انتظارك "، كان فارع الطول، ولم أتبين ملامح وجهه .

نظرت إلى الأربعة الجلوس فابتسم أولهم وآخرهم، سرت معه ونظرت خلفي فاختفى ثانيهم وثالثهم .

اتجهنا ناحية عمود المصاعد ولم ندخل أيًا منها، دخلنا في دهليز طويل، و كنت لا أحس لدليلي خطوًا و لا أرى منه سوى ظهره العريض في بدلته القاتمة، نظرت إلى بدلتي كانت من نفس اللون .

طال الدهليز حتى ظننته أبديًا، وقبل سؤالي دليلي " متى النهاية؟ " فتح بابًا فأغمضت عينيّ من شدة وهج الشمس، وخرجنا من المبنى .

أصبح مربع المباني خلفنا، سرنا حتى وصلنا إلى شجر كثيف ملتف توقفنا عند بدايته ونادى دليلي دليلاً آخرًا فأتاه .

- وصله لنورا .

قال له و أسلمني إليه ثم ذهب .

- اتفضل معايا .

قال لي ثم صمت فاتبعته .

كان يرتدي نفس البدلة القاتمة التي كان يرتديها صاحبه الأول والتي أرتدي أختها، دخلنا وسط الأشجار وظهر عن يسارنا برج عالٍ، جذب نظري تصميمه الغريب، مربع الجوانب ينتهي بقبة رمادية غامق لونها مخمسة الأطراف مسننة على الطراز القوطي، وتحت القبة أربع ساعات دائرية على الجدران الأربع، خلفياتها من الرخام الأسود دون شرط علي محيطها، ولا يظهر منها، رغم ضوء الشمس الشديد، سوى عقربين مضيئين يصنعان معًا خطًا مستقيمًا.

كنا نسير في اتجاه عقارب الساعة في خط دائري وعن يسارنا برج الساعة، و حين أنهينا دورتنا الأولى ضاقت المسافة بيننا و بين البرج فأدركت أن الأشجار مزروعة بطريقة حلزونية؛ لو كنا على طرفي عقربي ساعة فإننا نتحرك نحو مركزها، كأن الحلزون هو الزمن والبرج مركزه .

درنا ثلاثة فأصبحنا أمام البرج، كان لمبنى قديم ضخم عليه حروف أجنبية تشكل كلمات لم أتبين بأي لغةٍ كتبت، وإن اعتقدت أنها الفرنسية لكثرة تكرار حرفي es في أواخرها، وأسلمني دليلي الثاني لدليل آخر جالس على باب المبنى وتركني ومضى.

أخرج دليلي الجديد سجلاً وسألني عن اسمي، أجبته فتعجب وعاود سؤالي، عاودت إجابته فعاود تعجبه لكنه سجل اسمي ولم يعاود السؤال .

أغلق السجل فلمحت مكتوباً عليه (خط سيرك يكتب حروف اسمك)، وقام من مقامه ونادي أحدهم فأتاه، أسلمني إليه فصحبني حتى الباب، ولم أتبين ملامح وجهه، كان غطاء رأسه يأتيه ضوء الشمس من الأعلى فيجعل وجهه دومًا في الظل.

دخلنا من الباب الدائري فوجدت أمامي جدارًا، درنا فظل أمامنا ثم انفتح وألقانا داخل المبنى، كان الباب الدائري يدور داخل أسطوانة حجرية ذات فتحة واحدة تدور عكسه بنفس سرعة دورانه، حتى تتقابل فتحتاهما فينفتح الباب .

داخل المبنى كانت الإضاءة خافتة جدًا ولم يظهر من دليلي سوى ظهره الطويل وبدلته السوداء، وغطاء رأسه شبه العسكري الذي أبان من تحته ظلالاً لرأس صلعاء .

دخلنا في دهليز ووصلنا إلى باب، فتحه فانفتح على دهليزٍ آخر، دخلنا الدهليز الآخر ووصلنا إلى باب آخر فانفتح على سلم مستطيل صاعد للطوابق الأعلى، صعدنا مجموعة درجاته الأولى ثم انعطفنا، وصعدنا مجموعة الدرجات الثانية فوصلنا الطابق الأول .

كان الطابق الأول يبدأ بممر طويل على جداريه أبواب مغلقة من فوقها شبابيك زجاجية مغلقة، وجدرانه أعلى بكثير من جدران الطابق الأرضي .

حين وصلنا نهاية الممر كان أمامنا حائط عليه شباك مشبوك بمقبض حديدي عريض يغلق ضلفتيه، وعن يمينه ممر وعن يساره ممر، وظلام دامس يبدو في آخر اليمين وظلام دامس يبدو في آخر اليسار.

وقفنا أمام الشباك المغلق ولم يقل دليلي أيٌّ من الممرين أولى بالدخول، سألته فلم يجب، ناديته فلم يرد، جذبته ظل جامدًا ولم يهتز، دفعته فاصطدم جسده بالجدار وسقط؛ تدحرج الكاب عن رأسه الصلعاء، فتدحرجت الرأس الصلعاء، كانت مقطوعة.

ناحية الممر الأيمن جرت رأسه فجريت خلفها دون أن ألحقها، كانت المسافة بيننا تقل وتقل ثم تقل دون أن أمسكها على طريقة معضلة زينون الإيلي، وعندما قلت المسافة بيننا إلى درجة كبيرة صار جسدي يصغر كلما تقدمنا .

اقتربتُ منها جدًا فصغر جسدي جدًا، صارت الرأس الصلعاء المقطوعة ضعف جسدي والتفتت إليّ .

الرأس صلعاء من الجانبين، هكذا تصورت حتى لاحظت ثلاثة خطوط مكان العينين والفم، فُتح الشقان العلويان فرأيت عينين زجاجيتين دون بياضٍ أو سواد، مرآتان

يبدو فيهما جسدي بحجمه الجديد، وانفرج الخط الثالث عن فرجة دون لثةٍ أو أسنان، منها خرج لسان طويل مشقوق حاول بلعي .

جريت عائدًا أدراجي إلى الممر الرئيسي فتدحرجت الرأس الصلعاء المقطوعة من خلفي، طبقًا للأبعاد النسبية لحجمي الجديد كان بإمكانها اللحاق بي لولا زينون ومعضلته، صرت مدينًا له بزيارة قبره في اليونان وقراءة الفاتحة على روحه، وصلت تحت مقبض الشباك و قفزت لأتعلق به فانفلت من يدي، وكانت الرأس قد قفزت ورائي .

سقطت على الجسد المقطوع رأسه وسقطت الرأس عليه فسقط خداها عن فكيها وبان تحتهما خواء .

دخلتُ الممر الآخر عن يسار الشباك، ومن خلفي الرأس الصلعاء المقطوعة تجري، وصلت نهاية الممر فبان أمامي جدار عال أسود عليه ساعة دائرية سوداء دون شرط، بان عقرباها المضيئان متعامدين، توقفت الرأس خلفي ولم تبتلعني، قهقهتْ بصوت مُصِم ففتح أمامي باب، دخلته فأغلق عليّ، وقهقهت الرأس قهقهة أخرى فارتجت جدران الحجرة التي دخلتها وعاد جسدي لطبيعته.

على الطاولة الخشبية أمامي، وجدته؛ سحبت الكرسي وجلست في مواجهته .

قبضت عليه بيدي ومررت أصابعي على طوله الاسطواني حتى وصلت إلى رأسه المدبب المشقوق بعد الحلقة المستديرة حوله، في الآونة الأخيرة كثيرًا ما أذلني بعدم فاعليته، أحاول استعماله فيأبى عليّ استعمالاً، أحكه فيظل آبيًا، أدعك رأسه دون فائدة، أنطره عدة مرات في الهواء، يظل عاطلاً.

هذه المرة عاود الفعل فكسرته، وسمعت صوت طقطقة جسمه البلاستيكي، أخرجت أنبوبه الجاف وأفرغت حبره الأسود على الورق الأبيض، وجعلته نثارًا منثورًا فلم يترك أثرًا.

بجانب يدي اليسرى ظهر قلم آخر، ولم أكن أعسرًا، جاءني الأمر أن أكتب وما أنا بكاتب، كنت أخط بعض الأشياء أرتبها كيف أشاء ولا أطلع عليها أحدًا، وكنت متوقفًا عنها منذ فترة .

قبلاً حاولت الكتابة لكني لم أستطع عليها صبرًا، أمسكت ذلك القلم وشخبطت به فأبى كسابقه، كسرته وقمت عن المائدة فاختفت .

تحسست الجدران المصمتة فظهرت أعلى إحداها نافذة أنفذت ضوء البدر الساطع فنفذ، وجذبني الضياء الأزرق.

طرت خلال السنا وتلاشى جسدي، تجمع الضوء عبر عدسة فتجمعت معه، سبحت داخل زرقة رمادية وصرت إنسانها الأسود .

قامت ووقفت أمام مرآتها فرأيت نفسي، أدخلت أطراف أناملها ومسحتني دمعة فُسحت، وضعتني فوق إصبعها ونثرتني فنثرت، وتجمع جسدي مما انتثر، ابتسمت واستلقت على السرير.

- نورا ؟! .

سألتها .

- لو عايزني نورا، أبقى نورا .

أجابتني وضحكت.

في ضوء البدر ظهرت جدران الحجرة السوداء عالية، وسقف الحجرة أبيض وأرضيتها بيضاء، والسرير الذي تستلقي عليه أبيض، وشعرها الطويل أسود لامع بزرقة، بدأت في خلع ملابسها وإلقائها أرضًا، على الحائط فوقها بان عقربان مضيئان منطبقين على بعضهما، داخل دائرة سوداء، لا شرط على محيطها .

حين انتهت من خلع ملابسها بان جسدها مرمريًا لامعًا بوردية، جذبتني نحوها وأطبقت نخذيها عليّ فتعرى جسدي. زاد ضغطها على ظهري فجف حلقي وشعرت برغبة في التبول، زاد ضغط نخذيها عليّ فبلت على نفسي .

وضعت يديها بين نخذيّ وجذبت بللي كإسفنجة، وضعت أصابعها في فمي فانبثق الماء دافقًا من بينها وعاودت مثانتي الامتلاء، قبلتني وعضت لساني ووضعت فمي بين نخذيها فابتلعتني شفرتاها ودخلت في رحمها.

ركعت أمام البدر وولدتني، جف حلقي مرة أخرى ومرة أخرى بلت على نفسي .

جلستْ فوقي فلم أنتصب، عضتْ قضيبي فلم أنتصب، احمر شعرها وقيدتني وأمسكت شبشبها تضرب به لحمي حتى تمزق أشلاءً ابتعلتها ثم تفلتها من شباك في السقف فوقها؛ وعيناي تطفوان في الهواء التفتا ناحية جسدي فرأيت عظامي العارية وهي تطحنها وتذروها رمادًا خلف لحمي.

طار بي الهواء حتى شفطني شفاط على شباك غرفة أخرى، ودخلت مع الهواء المشفوط فتجمع جسدي وعاد مكتملاً.

على الحائط أمامي مرآة فيها مرآة، والمرآة فيها مرآة، وقفت أمام المرايا فلم يظهر وجهي، ظهرت بظهري كما لو كانت المرآة موضوعة خلفي، كانت صورتي تماثلاً لجسدي لا

انعكاسًا مرآويًا، يمينها يميني وشمالي شمالها، كأني صورة داخل مرآة لظهر أحدهم، أو كأني داخل بعد أتيح له رؤية أبعاده المتوازية.

رجعت للخلف فرجعت الصور للخلف وحافظت على المسافة بيننا، اقتربت فاندفعت الصور للأمام، فكرت في الرجوع إلى الحد الفاصل بيني وبينها فتخرج الصور لكني وقفت عند حدي، حاولت دفع جسدي للخلف فلم يندفع، ظلت المسافة بيني وبين الصور ثابتة .

اختفت المرايا واندمجت الأجساد في جسد، بقيت مرآة واحدة ظهر أمامها جهاز كومبيوتر وظهر داخلها نفس الجهاز أمام صورتي المتماثلة .

جلستُ على المقعد وبدأت الكتابة على الجهاز، ذلك عملي الذي لا أعرف غيره، أن أكتب ما يملى عليّ، فجلستْ صورتي المتماثلة وانكسر التماثل بيننا، ارتخى جانبا بطنه قليلاً، وبدا شعره قليل الشيب، وعلى أذنيه بان ذراعا نظارة.

أكتب فيكتب، أتوقف فيتوقف، أضغط للحفظ فيضغط للحفظ، وأسفل الشاشة ظهر عقربان متعامدان.

سمعت صوت ضحكة أنثوية عالية علّق معها الجهاز وتوقف عن تلقي الأوامر، أنقر زر الفأرة الأيمن لأرفرفشه فلا يُنقر الزر، **f5** لا يعمل، حتى التوليف الثلاثي (**ctrl** +

alt + del) توقف عن المُوالفة؛ نزلت على الجهاز أضغط زر رسترته فاختفى الجهاز والمائدة والمقعد الخشبي والمرآة .

في منتصف الغرفة وقفت حائرًا، واندفعت نحوي الحوائط تدفعني نحو الباب، وحين خطوت خارجًا كانت الرأس الصلعاء بانتظاري، وما أن رأتني حتى ابتلعتني وجرت بي وأنا بداخلها .

حين لفظتني الرأس الصلعاء أفقت، كانت ملابسي ممزقة عن صدري وكان جلدي ملتهبًا، نظرت حولي فرأيتها كما تخيلتها تمامًا، بنية العينين والشعر، شفتاها ملفوفتان لونهما وردي .

سألتها " أأنتِ نورا " فقالت " أنا نورا وهذا قصري"، لاحظت أن قامتها تقصر عن قامتي كما تخيلتها وتمنيت لو طالت فطالت، وتمنيتها شقراء فاشقر شعرها، سمراء فاسمر لونها .

- إنت فين يا عم .

سألتني بابتسامة حميمة .

- أنا ؟! .

تعجبتُ .

- يعني مين غيرك .

وزاد عجبي .

- مش قايلة لك من أسبوعين تبقى تيجي، ولا لازم أبعت لك .

ورفعت حاجبيّ حتى فارقا جبهتي على طريقة أفلام والت ديزني و لوني تيونز، فأكملت أن ذلك كان عبر محادثتنا اليومية الليلية عبر الانترنت .

سألتها من أنا؟ ، فأجابتني باسم أُلقي على مسامعي من قبل لكني لا أذكره، كأن هذا الاسم لي وفقدته دون أن أدري .

- خلاص يبقي إنتي مش عايزاني أنا، إنتي عايزاه هو .

- لأ عايزاك إنت، و بص حتى عشان نتأكد .

مدت قدمها نحوي وفوق مجلسها ظهرت ساعة رقمية أظهرت أربعة أرقام، دققت فيها النظر فوجدت أربع ثمانٍ، كانت معطلة .

تناولت قدمها في راحة يديّ، كانت ساحرة، جسدٌ أنثويٌ مكتملٌ أختزل في مساحة طولها شبر وعرضها عرض كف، الأصابع الدقيقة الشعر والرأس، الانحناء تحتهم محمراً

كثديين ناهدين، انحناء الباطن بطن مستوية وعانة، والكاحلان المخفيان إلا من لون وردي حولهما الردفان.

وضعت قدمها في فمي ومصصت أصابعها، مسدتْ بها وجهي فلعقتُ باطنها وقرصته بأسناني حتى أحمر.

خلعتها وناولتها لي قائلة :

- خليها معاك يا نساي .

ونبتت أخرى مكانها، اقتربت منها لأضمها فقالت :

- لما تبقى ترجع تاني .

و أخذتْ في الابتعاد للخلف .

- وهارجع تاني امتي

سألت .

- لما تبقى تعرف أنا عايزة مين .

وابتسمت واختفت من أمامي فاختفت الأشياء من حولي .

صار كل ما حولي لا شيء وغبت في اللا مكان .

٥[1]

عقارب الساعة المعلقة على الحائط أمامي تشير إلى الرابعة عصرًا، وأشعة الشمس تهبط من زجاج الشباك المغلق فتكسو مكتب الديسك بضياء أزرق قاتم .

كنت قد غفوت كالعادة أمام جهاز الكومبيوتر الذي أعمل عليه كمدخل للبيانات، اعتدلت ثم دخلت إلى الحمام، تبولت وحاولت بعد التبول دون فائدة .

منذ أسبوع سافرت سهام ووصلت مشاكلنا حدها الانفجاري .

رجعت إلى مكتبي، فتحت بريدي الإلكتروني فوجدت رسالة معنونة (عن قصصك المقتبسة)، يظهر اسم راسلتها بحروف لاتينية Mona Haroun، تتهمني فيها باقتباس قصصٍ عن قصص كاتب آخر معروف يدعي عاصم ثابت.

---

[1] القانون غير المكتوب لكتابة الرواية، وكل قانون غير مكتوب يذكرني بالاتفاق الخفي غير المعلن بين المومس والزبون، أن يتم تقديم التشويق على الإملال فتبدأ الرواية مشوقة ثم يتباطأ الإيقاع.

ولأن هذه الرواية رواية فأنها تتبع هذا القانون، حيث بدأت مشوقة لجر رجل الزبون وسيعود إيقاعها، عبر خمسة مقاطع أو أكثر، مملاً بطيئًا خنيقًا خنيقًا.

(ينصح كاتب السطور القارئ المتعجل المحب للسرعة والحركة بالقفز إلى المقطع الحادي عشر مباشرة، ويعده بأن لن يفوته الكثير).

قرأت الاسم الذي دعتني به، حازم الصولي، كنت حازم ولم أكن الصولي، فاعتقدت أنها لا تعنيني، وكنت مشغولاً بما لديّ فلم أنشغل بها.

بعد ثلاثة أيام عادت سهام من سفرها، اغتصبتني ليلاً وفي الصباح أنكرت، وفي اليوم التالي غادرت منزلي وانفصلنا في صمت.

بعد يومين طلب مني رئيس التحرير تحريفَ نصٍ مرسل إلينا فاعترضت، كنت مدخل بيانات لا أكثر، أكتب ما يُملي عليّ دون تدخل، وواجبي الوحيد المحافظة على نصية النص دون تغيير أو تصحيح.

بعدما خرجتُ من عنده وعدتُ إلى مكتبي فتحتُ الرسالة وأعدت قراءتها، كانت مليئة بروابط إلكترونية لقصص حازم الصولي تقابلها روابط أخرى لقصص عاصم ثابت، وكان اسم الصولي يثير فيّ موجة من سرح وعدم تذكر، كأنه كان لي ثم فقدته، وأرجعت ذلك إلى الاسم الأول المشترك بيننا.

حسب الترتيب الزمني تتشابه قصصهما إلى حد كبير ثم تتماثل، ثم يعاود التماثل الانكسار على يد عاصم ثابت بشيءٍ من وقارٍ محافظٍ، وكأني أشاهد مرايا متماثلة كتلك التي في قصر نورا.

قصص الصولي مؤرخة قبل قصص عاصم، وهناك احتمال أن يكون عاصم هو المقتبس.

ذلك شيءٌ آخرٌ بينهما، قالت منى أن الصولي هو المقتبس وقال الاحتمال العكس، لو صار الصولي مقتبسًا يصبح عاصم ضحية، ولو صار عاصم مقتبسًا يحتل الصولي مكانه، ولتبرئة أحدهما يجب إثبات التهمة على الآخر، قبل الإثبات يتبادلان موقعيهما كضدين لا يرتفعان معًا ولا يهبطان معًا ويظلان دومًا وجهان لذات العملة، اليوم عاصم وغدًا حازم، غدًا حازم واليوم عاصم .

مرهقًا فارغًا من كل شيءٍ بعد انفصالي الصامت عن سهام، أخذت أسلي نفسي بممارسة ألعابي الذهنية، أعدت قراءة القصص، بعضها يشبه أشياءً كنت أكتبها لا يعرفها أحد، وبعضها أحداث حدثت لي وحدي لا يعلمها أحد، وكلها متوقفة منذ توقفي عن كتابة أشيائي، وكنت متوقفًا منذ فترة .

أعدت قراءة القصص مرة أخرى محاولاً التذكر فلم أتذكر، حملني الرابط الأول إلى موقع آخر عليه قصص أخرى أقدم من الأولى قرأتها ولم أتذكر، وحملني الموقع الآخر إلى آخر منشور عليه كل قصص الصولي، قرأت قصص الصفحة الأولى من الأرشيف فلم

أتذكر، قرأت قصص الصفحة الثانية فلم أتذكر، والثالثة والرابعة دون أن أتذكر حتى مللت، وقبل إغلاقي الموقع ذهبت إلى الصفحة الأخيرة وقرأت أولى القصص فتذكرت. هذا الحساب لي ولا أذكره، منذ ثلاث سنوات توقفت عن الكتابة في ذلك الموقع ولم ألغه.

ذلك إذًا فرضٌ رائعٌ جديدٌ، منذ ثلاثة أعوام أقرر الانسحاب من الموقع دون أن ألغي الحساب فيقرر الحساب عدم إلغاء نفسه، يستقل بذاته ويكمل حياته باعتباره شخصية مستقلة دون ارتباط بصانعه الأول، كطفل قطع حبله السري وتوقف عن الرضاع من أمه فصار رجلاً،" أولادكم ليسوا لكم، أولادكم أبناء الحياة " قال جبران يومًا، " هوياتكم الافتراضية ليست لكم، هوياتكم الافتراضية ملكٌ لذاتها " قال حسابي على الموقع ردًا عليه.

يكمل حسابي، بعد أن صار تجليًا ماديًا لفكرة كانت في ذهني، ما بدأت ولم أكمله، ينشر قصصًا تشبهني، يصنع منها أسلوبه الخاص ويصبح قاصًا جيدًا دون أن يعرفه أحد، ثم يقتبس قصصه كاتب آخر يشتهر بها ويعرفه الجميع، فيسقط في يديّ حسابي ويوقن أن قد جاءت الساعة فيؤوب إلى صانعه ويرسل لي عن طريق بريدي الإلكتروني رسالة استغاثة .

جالسًا أمام شاشة الكومبيوتر وقد خلا مكتب الديسك إلا مني، والفروض تتوالى من بعضها كلبانة التصقت بنعل حذائي، كلما حاولت شدها تزداد تلعبكًا حتى تصنع شبكة عنكبوتية تحبسني بداخلها، وأسوأ ما في الأمر أنها بطعم التوت وأنا لا أحب التوت .

بعد ثلاث سنوات تعود إليّ هوية مستعارة صنعتها يومًا ونسيتها، بعدما عاشت حياة أخرى مستقلة، وتملي عليّ شروطها، وكأني ألفت هذه الآلية حتى آلفتني فأَلَّفَّتني وألفيتُ نفسي مدخل بيانات في العمل والحياة، يملي عليّ الآخرون أقوالهم فأنقلها دون إدراك لمعناها، وتملي عليّ هويتي المستعارة رسائلها فأنقلها إلى شاشة الحياة.

تؤثر فيّ هويتي المستعارة فأؤثر في الكاتب المعروف بدوري، كعرائس ماريونيت متداخلة، هويتي التي صنعتها وتاهت ثم عادت في الأعلى وأنا في المنتصف وعاصم ثابت في الأسفل، ومن فوقنا شخص لا نعرفه استعمل حسابي طوال ثلاثة أعوام دون أن أدري بعدما عرف كلمة السر .

حاولت الدخول على الموقع بحسابي القديم ونفس كلمة السر ولدهشتي دخلت، غيرتها وحفظت الجديدة.

في الحكايات القديمة ينفصل عالم الأرواح عن عالم الأنس بكلمة يعرفها المرء بعد عهود يقطعها على نفسه بألا يخون السر المعطى له، فإذا خانه يختلط عالم الأرواح بعالم

الإنس، وفي الحكايات الحديثة ينفصل العالم الافتراضي عن العالم المعاش بكلمة سر يحصل المرء عليها بعد اتفاق مشترك على شروط استخدامها، وعبر الكومبيوتر يدخل العالم الآخر.

ما دون اللحظات التي يراها المرء من عالم الأرواح لا يعرف عنها غير ما تعطيه له، وما دون اللحظات القليلة التي يجلسها المرء و يكتب بهويته المستعارة لا يعرف عنها شيئًا، بعيدًا عنه لها عالمها الآخر تعيش فيه حياة أخرى وتتزاوج وتتناسل وتربي أولادها، فإذا ما دعاها بالحروف السرية المشتركة بينهما أتته في الصورة التي يعلمها .

في الحلم يصحو الأشخاص الذين التقيتهم عرضًا وانزلقوا إلى الحياة وتركوني قائمًا، وفي أحلام اليقظة المرضية يتوقف إدراك الحلم من الواقع وينكسر الحد الفاصل، يصبح الواقع هو الحلم .

في نومٍ ما يخرج من ذهني حلم قبل أن أحلمه ويغادر، يعاشر أحلامًا أخرى ويعيش حياة أخرى ثم يعود، يحاول الدخول فينسي السر بيننا ويظل تائهًا، ثم يلقاني فيعرفني دون أن أعرفه، هو جزءٌ مني ولست جزءًا منه، يعرف موضعه مني ولا أعرف موضعي منه.

تتجلي أفكاري الكامنة وتصنع هوية أخرى، لي وليست لي، تأتيني عن طريق منى.

لم تذكر منى في رسالتها سوى اسمها الأول، بحثت على الانترنت باسمها الظاهر من بريدها الالكتروني (منى هارون)، وعثرت على صفحة شخصية لها على موقع مجلة أدبية، مترجمة عن الفرنسية، تعمل وآخرون في إعداد دليل للأدباء المعاصرين يصدر باللغتين الإنجليزية و الفرنسية.

نظرت إلى صورتها، كانت جميلة نوعًا وإن كان جمالها مطفئًا، أجمل ما بوجهها سنتان أرنبيتان تذكران بكاميليا فخر الصناعة المصرية، وشعر أسود مموج تحته جبهة بياضها فارسي.

في صباح يوم آخر دس الرئيس كلماته على النص فاعترضت وقررت الرحيل، وقبل تركي للعمل أرسلت ردًا قصيرًا على رسالة منى لتبرئة نفسي من اقتباس القصص؛ وما أبرئ نفسي إنما أبرئ هوية مستعارة صنعتها من قبل ونسيتها ثلاث سنوات فاستقلت عني ثم عادت إليّ.

بعد أيام أرسلت لي مرة أخرى وأصرت على اتهامها فأرسلت لها ردًا مستفيضًا مصحوباً بجدول بسيط للمقارنة مرفق به تواريخ نشر القصص، وذيلت الرسالة برقم هاتفي.

و أنا لم أكن أنا، كنت الصولي الذي كونته فكانني ثم تركني.

بعد يومين أرسلت لي رسالتها الثالثة، خفت فيها حدة الاتهام وذَيلَتها برقم هاتفها.

في الأسبوع التالي اتصلت بها فأعجبني صوتها، طفولياً مرحًا براء طائرة وإن لم تكن لثغاء، طلبت منها موعدًا فوافقت وتقابلنا للمرة الأولى.

6

على مقهى في وسط المدينة، كنت أرتاده أيام عملي السابق، كان موعدنا.

مبكرًا بساعة وصلت، وجلست ممارسًا متعتي في تأمل العابرين والتحديق في أجساد الفتيات مقارنًا بين عهد السبعينات والجيبات القصيرة وعهد البَديهات .

(ومع البَديهات تحولت الأنظار إلى استدارات الأثداء المشدودة، واتساع المسافة بين الكتفين والخاصرة الأصغر من الأرداف، ودائمًا ما اعتقدت أن المصريين لم يجدوا تشبيهًا أكثر سخافة من الرمان للأثداء، أجمل الأثداء ما كان كثمرة الطماطم الناضجة، كثيرة اللحم كثيرة الماء، صلبة مع ليونة ومرونة، وربما كانت الطماطم أحدث استنباتًا من الرمان، اسما الطماطم العربيان ذوا أصل أجنبي، طماطم من **tomato**، وبندورة من **pan d'ore**، وربما لأن الرمان أكبر وله بروز يشبه الحلمة، والوعي الشعبي يربطه بالجنة صار تشبيهًا صالحًا للأثداء)

عند هذا الحد توقفت تأملاتي عن الأثداء وعدت لهوايتي الأصلية في مراقبة العابرين والجالسين، ومتعة التلصص على الأحاديث الجانبية وقصص الحب الساذجة، ومتابعة الخيانة البصرية لإحداهن عبر نظرتها الواعدة لكل عابر بالوصال بينما تمسك يد صديقها في غنجٍ.

وحلم قديم يستحوذ عليّ، أن أضع قصصًا ينفذها غيري دون مشاركتي فيها ودون علم أبطالها أني من وراء حجاب أسيرهم كيفما أشاء، كتلك الوجوه الجالسة من حولي، آألفها فأؤلف لها سيناريوهاتٍ متشابهة .

تركت نصف عينيّ للصفحة التي أتخبط عليها تأملاتي، وثبتت النصف الآخر على وجهٍ مألوف لفتاة خمرية ذهبية الشعر بعينين بنفسجيتين، كلما نظرت لضوء دمعت فهما عدستين، بجانبي جلست فأعجبني وهم اعتقادي بتعمدها ذلك لإكمال لعبة المنح والمنع والاستمتاع بكونها امرأة مرغوبة.

وضعت ساقًا على ساقٍ، أعجبني اكتناز فخذيها، ولمحت حرف J على جيب بنطالها الخلفي.

نزلت ببصري رحلة ساخنة على طول ساقها، من أردافها حتى قدمها الصغيرة بأصابعها الدقيقة المضمومة في طرف الصندل.

فكرت في محادثتها هي التي تألف وجهي منذ ثلاثة شهور على الأقل .

وضعت قلمي جانبًا وغصت داخل عينيها، أحسستْ برغبتي في الحديث معها فأخرجت هاتفها تتحدث فيه، وأشاحت بعيدًا بوجهها.

في تمام موعدها حضرت منى، وقفت لاستقبالها، صافحتها ثم جلسنا وقامت صاحبة حرف الـ J من جانبنا ورحل .

بعد التعارف التقليدي سألت منى عما إذا كانت قد تأكدت أن القصص لي فقالت أنها لا زالت متحيرة.

- ليه ؟ هي كيميا يا أستاذة منى .

سألتها بصوت مرتفع، وأشعلتُ سيجارة ثم نفخت دخانها .

- مش كيميا يا أستاذ حازم، بس المسألة محتاجة وقت.

أجابتني بصوت لم ترتفع نبرته .

- وقت !! ماشي خدي راحتك .

- طبعًا هاخد راحتي، الإتهام مش سهل وده كاتب معروف و ...

واسترسلت في شرح موقفها بكلامٍ معادٍ مللت سماعه، عندها عبرا من أمامي فشدا انتباهي.

زوجان من وجوه المقهى، كلما رأيتهما تعجبت من تناقض الحجم بينهما، تبدو هي كثلاجة أربعة عشر قدمًا ببابين بينما هو ثلاجة فنادق أربعة أقدام، وكلما لمحتهما تخيلته بداخلها وضحكت.

- فيه حاجة بتضحك في كلامي .

انتبهت منى لضحكي فقطعت استرسالها .

- أبدًا بس افتكرت حاجة.

ومضيا في طريقهما فتذكرت السيناريو الذي رسمته لهما وقررت رسم سيناريو آخر لعاصم ثابت.

- أستاذة منى إنتي معاكي حق، بس اديني أسبوعين وهاثبت لك صحة كلامي .

- إزاي؟.

- اصبري على رزقك، بكرة تعرفي.

وابتسمت لأهدئ حدة حوارنا، وأدرت دفته ناحية إكمال تعارفنا المنقوص .

كان لدي خاطرة صغتها في صورة قصصية، فكرت في تعديلها ونشرها وإرسالها إلى منى بمجرد نشرها، حتى إذا اقتبسها عاصم ثابت أو تشابهت قصة لاحقة له معها تأكدت مني من اتهامي السابق له.

مقامرة دون شك، تزيد من إثارتها مهلة زمنية وضعتها لنفسي، أسبوعان يقع خلالها عاصم في الفخ أو لا يقع.

لكنها دون خسائر، أنا لست الصولي، مقامرة ترتبط بحلمي القديم بكتابة سير حياة لأناس ينفذونها دون معرفة واضعها ودون معرفة أنها موضوعة سلفًا .

عالم تخيلي من صنعي، يعيش فيه بشره فترات حياة قدرها زمن السيناريو المرسوم لهم، ولا وجود لهم قبل السيناريو ولا وجود لهم بعده، وربما أوسع عالمي التخيلي قليلاً

[٢] قانون آخر غير مكتوب لكتابة الرواية وبخاصة تلك المسماة، حسب آخر تصنيف للباعة، بالرواية الذهنية، أن يضع الكاتب الأساس النظري في الفصول الأولى، على طريقة الأبحاث الأكاديمية.

وبرغم أن هذه الرواية ليست ذهنية، فهي قليلة الدهن منزوعة الدسم، فإنها تتبع ذلك القانون تطبيقًا لقاعدة "اللي يتجوز ماما يبقى أونكل" .

فأجعله عالمًا متتابعًا من أطقم متتالية من البشر، وليكن الممثلون الأوائل السلف الافتراضي لخلفهم الافتراضي داخل سيناريوهات العالم التخيلي الممتد لمدى غير محدود سوى برغبتي في استمراره .

في ذلك العالم سيملك الطاقم التمثيلي داخل السيناريو المفترض حرية اختيار محدودة بحدود حياتهم المحدودة بحدود السيناريو المفترض، ولن يعرفوا تفاصيل السيناريو مسبقًا ولن يعرفوا صانعه ولن يعرفوا بوجود السيناريو من الأساس، فتصبح المفاجأة الدرامية للمتلقي خارج السيناريو مفاجأة درامية أيضًا للمؤدي داخل السيناريو .

كل السيناريوهات الممثلة تحمل مفاجأةً للمتلقي خارجها الذي لا يعرف سير الأحداث، بينما يعرف الممثلون سير الأحداث فلا تصبح المفاجأة الدرامية مفاجئةً لهم .

في سيناريوهاتي المفترضة لعالمي المتخيل سيختلف الأمر، لن يعرف المؤدون سير الأحداث، هم فقط سيعيشونها، فتصبح المفاجأة الدرامية، تلك التي أعرفها مسبقًا، مُفاجئةً لهم هم الذين لا يعرفونها مسبقًا .

ومثلما يحدث اختلافات في الرؤى في السيناريوهات الممثلة بين الكاتب والمخرج والمؤدين، كاختلافات حتمية بين الممكن والأمثل، في لعبة تراضي يرضى خلالها

الكاتب عن رؤية المخرج بحدود معينة تختلف من كاتبٍ لآخر، ويرضى خلالها المخرج عن رؤية الممثلين بحدود معينة تختلف من مخرجٍ لآخر.

وبينما لا تؤثر تلك الاختلافات الطفيفة بين الممكن المتفق عليه والأمثل داخل عقل كل مؤلف على الصورة النهائية للعمل لكونها اختلافات في حدود المتاح الطبيعي ولخلو السيناريوهات الممثلة من تكرار يسمح بتراكم الأخطاء، فإن اختلافات الرؤى في عالمي المتخيل ستؤثر، في عالمي لن ألعب دور المخرج ولن أتدخل أبدًا في سير الأحداث، وستتكرر سيناريوهاتي المفترضة تكرارًا غير محدود مما سيسمح بتراكم الأخطاء الصغيرة وتحولها إلى أخطاء كبيرة ملموسة، وربما أدى ذلك إلى تغير صورة السيناريو الأصلية تمامًا، بحيث تصبح المفاجأة الدرامية مُفاجئةً للمؤدين داخل العمل ولصانعه في الوقت ذاته.

وزيادة في احتمالات اختلاف الرؤية سأضع داخل سيناريوهاتي اختيارات متشعبةً لكل حدث، فلو كان من المفترض أن يسقط كوبٌ من على مائدة إلى الأرض فلن أحدد مصير الكوب وسأترك الخيار مفتوحًا، قد يكسر وقد يشرخ وقد يظل سليمًا دون أن يمسه سوءٌ، وإذا كسر فربما يُكسر كله متفتتًا وربما يُكسر بعضه، وإذا شُرِخ فمن الجانب الأيمن أو من الجانب الأيسر أو من الأسفل أو من الأعلى، وكل اختيار

سيترتب عليه اختيار آخر في شبكة متداخلة من الاحتمالات المختلفة لفوضى الاختلاف.

عندها ستصبح سيناريوهاتي ممتعة لي كواضعها وممتعة للمؤدين داخلها في الوقت نفسه، فقط سأعطي إشارة البدء ثم أستَرِحُ بعدها متلذذًا بالمراقبة، كأدوار متتالية في لعبة الشطرنج تبدأ جميعها بخمسٍ نقلاتٍ إجبارية، بعدها يُعطى اللاعبون حرية الاختيار وتتكرر الأدوار إلى ما لا نهاية، ومهما تكررت لا تتطابق، ستتشابه في افتتاحياتها الإجبارية فقط وستحمل قدرًا عظيمًا من الاختلاف فيما دون ذلك .

ولو اقتصرت حياة ممثلي السيناريو المفترض على فترته، القصيرة بالنسبة لي كصانعه بينما هي كل حياة ممثليه على الأقل بالنسبة لإدراكي لها، عندها ستكون الثانية المجردة، الفترة الضئيلة غير المحسوسة بالنسبة لي، فترة كبيرة بالنسبة لهم، سيعملون خلالها على صنع أكبر قدرٍ ممكن من الأشياء لتأثير الثانية النسبي الكبير على حياتهم الممتدة دقائقًا معدودات، وستكون سرعة الأحداث في عالمي المتخيل سرعة خيالية بالنسبة لعالمي الحقيقي.

ويبقى احتمال قائم وهو ألاّ أدرك من الأصل بعض الأشياء الحادثة في عالمهم نتيجة التضارب الكبير في سرعة الأحداث بين عالمي الحقيقي وعالمهم المتخيل.

عندها سأصل إلى قمة المتع، متعة اكتشافي للاختلافات مضافاً إليها متعة مراقبة اكتشافهم لسير حياتهم ومحاولة التعرف على حكمتها وحكمة واضعها والسعي الدءوب للتعرف عليه .

نشوتي القصوى ستكون في صنع حياة الآخرين بدلاً من أن يصنعُ الآخرون حياتي .

ولو امتد عمر الأجيال المختلفة من ممثلي السيناريو على مدى ثلاث فترات أو أكثر سيؤثر ذلك التتابع على تركيب السيناريو، ولو أتيحت لهذه الأجيال السالفة تدوين ملاحظاتهم عن السيناريو المفترض للأجيال اللاحقة، فربما تقترب الأجيال المختلفة من التصور الأمثل للسيناريو وربما لا، وربما تنشأ صراعات بين الأسلاف والأخلاف غير مرسومة وغير متوقعة .

كل ذلك التعقيد سينتج عن إدخال مساحة ضئيلة من حرية الاختيار في إطار إجباري، هو إطار السيناريو المرسوم كقواعد مرنة تشبه قواعد الشطرنج، تحد الاحتمالات بحدود منطقية وتطلقها فيما عدا ذلك .

ولو كان السيناريو المفترض مجرد تصور أولي للأحداث دون اشتماله أية خطةٍ مرسومة سلفًا للأحداث، ولو كانت لممثليه حرية مطلقة في اختيار أفعالهم منذ بدايته فربما

تكون التعقيدات الناتجة أكبر حتى من قدرتي كصانعه على إدراكها، كل ما أملكه حين ذاك القدرة على إنهاء السيناريو وقتما أرغب .

لكن عاصم ثابت اختار الطريق البسيط السهل وأبتعد عن كل الاحتمالات الفلسفية .

وكنت قد نشرت القصة ثم تركت كل شيءٍ لإرادة الأقدار، وانشغلت بمشاغلة الفتاة ذات الحرف والطيف التي تشغلني وخاطري بها مشغول .

غاب أسبوعًا عن نشرها، خفت من خسارة رهاني، وبعد عشرة أيامٍ نشرها بتعديلات مذهلة جلبت لي متعة خرافية عند قراءتها، وعندما قرأت ردود أفعال قراءه تحولت المتعة إلى لوثةٍ سكرٍ .

وفي نهاية الأسبوعين تلقيت رسالة من مني على بريدي الإلكتروني .

From Mona Haroun to me show details

Subject: ref: قصة جديدة

حازم

لم أتأكد فقط من سرقة عاصم ثابت لانتاجك السابق لكني تأكدت أيضًا من سذاجة كتابته، وبدأت أشك حتى في أنه هو مؤلف مقالاته فربما يأخذها هي أيضًا من مكانٍ آخر.

لكني أعترف أن المقارنة بين نصك الأصلي وتعديلاته أدخلتني في نوبة من الضحك.

ففي قصتك تقدم خاتمة شعرية بعد مونولوج طويل للراوي المقيم مع زوجة أبيه التي * تتهم أخته بعلاقة مع أحد أبناء القرية

" وهكذا نظرت إلى القمر يسرع نحو محاقه، وتمنيت اختناقه بهدوءٍ كي لا أسمع بكاءه "

فيحولها هو إلى خاتمة إنشائية بعد اكتفائه بإعادة ترتيب السطور لا أكثر.

" ونظرت إلى القمر فولد الهلال، وفي الصباح وُجدت أختي قتيلة، وبعد أيامٍ أُلقيَ القبض على قاتلها واعترف بأنه عشيق زوجة أبي، فرفع أهل القرية أكفهم بالدعاء عليها وبالرحمة لأختي وأبي "

خاتمة تُذكر بالنهايات السعيدة عندما تزوج البطل والبطلة وعاشوا في تبات ونبات وخلفوا صبيان وبنات .

---

* عندما نشرت القصة واقتبسها عاصم، عرفت سر توقفي عن نشر كتابتي، كتابة رومانتيكية بدائية تحمل قدرًا كبيرًا من المط والتطويل، باختصار كتابة لا تصلح سوى طعمٍ لفخ .

حازم

مدينة لك باعتذارين أول واحد عن اتهامي لك بسرقة القصص وتاني اعتذار عن مقارنتك بعاصم ثابت .

أتمني أن نلتقي قريبًا كأصدقاء، إذا سمحت لي باعتبارك صديقي

سلام وإلى لقاء قريب .

Show quoted text

رنت الجملة الأخيرة بداخلي، رددت على الرسالة ردًا مقتضبًا وطلبت موعدًا على نفس المقهى.

من النظرة الأولى بانت منى مختلفة، بابتسامة عريضةٍ استقبلتني، فردت شعرها المموج وأرسلته، وثمة جاذبية خاصة في إرسال الشعر الأسود.

جلسنا، بادرتني بسؤال عن خطتي المقبلة، قلت لها أني سأستمر في دس القصص حتى أحصل على دليلٍ كافٍ، ربما أربع أو خمس قصص أخرى، أقنعتها الحجة ولم تشك في أسبابي الحقيقية.

من خلفي عبر شاب قطع حديثنا، صافحها وصافحته وتحدثا بفرنسية متقنة.

جلست بعد رحيله وقالت :

- فرنسوا، صديق قديم

وبانت في عينيها لمعة .

- بس أنا ما سألتش .

أجبتها دون اكتراث بينما أنفث دخان سيجارتي الأولى منذ بدء جلستنا.

- بس أنا عايزة أقول لك .

- ليه؟ .

- غلاسة .

وابتسمت مخرجة لسانًا ورديًا لامعًا فكرت في عضه .

سألتها :

- كنتوا مرتبطين صح؟ .

هزت رأسها مجيبة وأضافت :

- بس سبنا بعض .

- ليه؟ .

- عشان ما بعرفش أحب بالفرنساوي، ومش هاعيش أترجم مشاعري .

وتنهدت ثم قالت :

- يمكن عايزة أحب بالعربي .

وتوقفت عن الحديث .

قبيل انتهاء جلستنا شعرت بحميمية مُفاجئة تجاهها، بدأتها هي بقولها " عايزة أحب بالعربي "، فاقترحت عليها التمشية .

سرنا عبر شوارع وسط المدينة نتأمل مبانيها القديمة ونتحدث عن علاقاتنا القديمة.

وبينما نعبر إحدى الإشارات لامست يدها فانسكبت بكل ما بداخلي، وحكيت عن ذكريات علاقتي بسهام دون أن أدخر حرفًا، حتى فشلي الأخير معها حكيت لمنى عنه .

في الليل ودعتها بقبلة في الهواء استقبلتها، وتواعدنا على لقاء يومي عبر الانترنت ثم مضينا.

في تلك الأيام تعمقت علاقتي الأخرى .

S.M.S

____Mona____
Mama et papa mesafrine france eh ra2yak tzorni fe elbeet
options

____ Hazem _____
Ok ana fadi
options

_____ Mona _____
Hab3atlak el3enwan we elme3ad
options

٨

اقترب موعدنا، أغلقت بابي ونزلت السلم درجتين درجتين، ووليت ظهري لباب مسكني ووجهي تجاه مدخل الشارع الآخر، ومشيت حتى الطريق العام ثم ركبت الميكروباص.

وصلت إلى الميدان ونزلت، وكان عليّ أن أختبئ عن عينيّ فضولي مثرثر وجدته بقربي، وكنت ألقاه في بعض ندواتٍ أحضرها هاويًا ويحضرها محترفًا، بكفه الأيمن كان يمسك جريدته وبمجرد وصولي حشود الواقفين طواها، فسببتُ الدينَ لحظي اللعين، نخيب ظني ومال برأسه واستلم أذنيّ من يجاوره بادئًا في ثرثرته، عندها اقتربت من امرأة عرضها كعرض الحافلات واختبأت خلفها، وأدليت عينيّ أراقبه على حذر.

في لفتة من لفتاته الكثيرة التقت عينانا ففررت مبتعدًا، وفي خطوتي الثالثة صدمني هواءٌ ساخنٌ مسرعٌ نحوي، فقفزت بداخله.

وجاء من أقصى الطريق يترنح من ثقل الازدحام، فلم ألحق سوى التعلق به، بقدم واحدة على السلم والأخرى تتأرجح في الهواء، وفي المحطة التالية لحقت قدمي بأختها،

وفي الثالثة أتتني حمم بشرية مندفعة، غيرت وضعي جذريًا، رمتني الحممُ بين طاولة التذاكر وآخر الكراسي.

وانحشر جسدها أمامي، صبية في السادسة عشر، بالأمس القريب ودعت طفولتها واستدار من جسدها ما قدر له أن يستدير، فأراحت استداراتها عليّ.

تواطأت على التصاقنا المتبادل حتى زلزلت الأجساد زلزالها وأنزلت الحافلة بعضها، فابتعدت قدر خطوة وجاورتها، حينها دفعني رجل، أراح جسده على مؤخرتها وألتصق. فوق رأسي رفع ذراعه الأيسر عاليًا فصدمني مرفقه، وعلى العمود الملاصق لطاولة التذاكر وضع يده اليمنى، أحاطها بذراعه فأحيطت، وانتصب إصبع يده الأكبر ودفع جسدها نحوه فاندفعت، وانتصب إصبعه الآخر في عجزها، والتصق ثم التصق، وفي عينيها بانت استغاثة أنثى يأكلها ذكر.

في المحطة التالية اقتربت منها حين اهتز الوقوف، وبين ذراعه المرفوع ورأسها حشرت جسدي، ولما تحرك الأتوبيس قليلاً زحزحت جسدها بمعاونة يدي فانزاحت نحوي.

صار جسدها بيني وبين مسند المقعد وبينه، بكلكله نزل على كاهلي فنزلت بجسدي على عجيزتها، زاد ضغطه على ظهري لأبتعد عنها فزاد ضغطي عليها، وكلما ازداد هو ضغطًا ازددت أنا لذة، حتى لمح أخرى فالتصق بها وحلّ عن ظهري.

رحل وخف ضغطه، ابتعدت قليلاً عنها فأراحت عجيزتها على قضيبي فانتصب، ومع اهتزاز حركة الأتوبيس تلامست أردافها اللينة واحتكت بين فخذيّ فازددت انتصابًا، وازددتُ التصاقًا فازدادت إلتصاقًا حتى تحجرتُ، وبدأت تفكيرًا فلسفيًا عقيمًا عن الفرق بين فعل الرغبة وفعل الإكراه لكي لا يفتضح أمري.

خف الزحام شيئًا فشيئًا فابتعدتُ عنها وجاورتها، وضعت يدي على يدها فدغدغتني أناملها الصغيرة، وحين همّت بالنزول غاصت نظرتها داخل عينيّ وعلى شفتيها بانت ابتسامة.

نزلتُ من الأتوبيس، كان على السير مسافة قصيرة حتى بيت منى، وقفت برهة لأخفي انتصابي، أشعلت سيجارة ونفثت دخانها، وبيدي عدلتُ الحزام وشددتُ الحجر ثم مضيتُ.

عندما وصلت أسفل منزلها عرفته دون عناء يذكر، كثيرًا ما احتوتني الشوارع المجاورة، بالأشجار المحنية عليها تضمها بين كفيها، وبالمباني ذات التصميمات المعمارية الفريدة المكملة لانحناءات الأغصان.

على طول جدران الطابق الأرضي وشرفاته، تاج عمودٍ متكرر، بأربعة أوراق حجرية تحيط به كرأس هرم رباعي مقلوب تلتف باستدارةٍ مسترخيةٍ، وبين كل ورقة وأخرى

نجمة رباعية داخل نجمة ثمانية، تلامس حواف النجمتين زخارف كل ورقتين، ومدخل البيت بين عمودين أصغر بتاجين مختلفين وأعلى الباب زجاج معشق في رخامٍ ملونٍ، ويتوسط الزجاج عمود آخر بتاج مزخرف.

رفعتُ رأسي لأتأمل دقة رسومه، ومررتُ أصابعي على جداره الأملس، فسرت فيّ برودة الرخام، والتصقتُ به فالتصق بي والتصقت بأنفي رائحة الخشب العتيق من مظلة الشرفة ذات الشقوق، ومن جيبي أخرجت هاتفي لألتقط صورة لهذا التاج لم يسمح بها تيجان الطابقِ الأرضي.

- ياه .. هو عاجبك للدرجة دي.

كانت تقف خلفي، وعلى الطاولة الصغيرة وضعت صينية الشاي .

- عاجبني جدًا، من زمان نفسي أصور العواميد اللي هنا.

والتفتُ إليها فجلستْ، وجلستُ أمامها على الكرسي الخيرزان.

- ماشي يا سيدي، ابقى تعالى صورهم على طول.

وابتسمت فبانت سنتاها الأرنبيتان في مقدمة فمها .

- هاجي تاني طبعًا .

وتناولتْ كوبها وصبت الماء على كيس الشاي وأخرجته سريعًا ولم تضع السكر.

وتناولتُ كوبي وضغطتُ الملعقة على الكيس حتى تمزق ثم وضعتُ السكر، وأدرت الملعقة عدة مرات وطرقتها على حافة الكوب مرتين، فسري في الشرفة صوت خبط المعدن الصلد بالزجاج المرن.

أخرجتُ سجائري وأشعلتُ واحدة، سحبت نفسًا عميقًا وألقيتُ العلبة على الطاولة، نفثت نفس الدخان وأخذت أتأمل الدخان وهو يصعد نحو المظلة الخشبية.

أمامي أسندتْ ذراعها الأيسر، واتكأتْ على الكرسي وثنت ساقها اليمنى تحتها، أرجحتْ اليسرى فبان الطلاء الشفاف على أظافرها الصغيرة وبانت قدمها الدقيقة.

أنهيت كوبي ووضعته أمامي، نظرتُ إليها فابتسمتْ .

بعدما أنهت كوبها قامت، مشت عبر الصالة واختفت عن ناظريّ.

قمتُ ونظرتُ إلى أوراق شجرة المانجو التي تلامس أطرافها سقف الشرفة الخشبي، وأرحتُ كفيّ على السور الحجري، ومن الداخل سرى صوتٌ قانونٍ يبدأ لحنًا ففردت قامتي وأغمضت عينيّ وأخذت نفسًا عميقًا.

اختلط القانون بصوت ناي ودفوف حائرة، تنفست أعمق فشممتُ رائحةَ الأوراق والثمر، صعد الناي منفردًا فلامس جانبي الأيسر طيفٌ رقيق .

- إنت بتعمل إيه.

سألتني وهي بجانبي.

- أبدًا باشم الشجر.

أجبتها وفتحت عينيّ، كان الناي ينفرد حزنًا، يخالطه من آنٍ لآخر صوت القانون.

- تعرف .. أنا كمان بحب ريحة الشجر.

وثنت ركبتها اليمنى على السور فلامس كعبها ساقي.

تعمق اللحن وطفا في المساحة بين ناي وأرغول فنسج داخلي شجنًا، سألتها عن صاحب اللحن فقالت أنه ملحن تركي اسمه عمر فاروق فعرفتُ سر شجني، فعن أمي عن أمها عن أناسٍ لم تسمهم وقالت الناس اللي قبلنا أنهم قالوا : " الشيخ البعيد سره باتع "، وأمي لا تكذب.

خَفَتَ اللحنُ فسألتها :

- هما بابا وماما مسافرين بقالهم أد إيه.

والتفتُّ إلى الناحية الأخرى، ورفعت بصري لأتأمل ظلال الشجر على السقف الخشبي المزخرف.

- من تلات .. أربع تيام.

أجابتني واستدارت، اتكأت بمرفقيها على السور فبانت مع الضوء الجانبي استدارة نهدها.

- وهيقعدوا لإمتى.

ودنوتُ بذراعي بالقرب من ذراعها العاري فأنزلته بجوارها.

- يمكن لآخر الصيف .

- مش كتير .

- عادي أنا أتعودت على كده .

وأسدلتُ ذراعي بجوار ذراعها، ولامستْ أناملي أناملها.

- تيجي نجيب مانجة .

قالت وابتسمت وانعكس الضوء على شعرها المرفوع كعكة فبانت رقبتها المنسرحة.

التففنا ناحية الشجرة وأنثينا نجذب الفروع، من فوق بنطالها المنزلي لامست براحة يدي اليسرى أردافها ونحن نهز الشجرة ونضحك، يزداد هزنا فأمسك براحة يدي ردفها الأيسر، والثمرُ لا ينزل إلى الأعلى.

وهي تنفض يدها من تراب الأوراق لففت ذراعي حولها، وضممتها من الخلف .

اقتربت من انحناء أذنها فالتفتَت بجسدها ناحيتي، غابت عيناها قليلاً ولامس هواءها الساخن طرف شفتي السفلى فغبتُ بدوري، ضمتني نحوها، مددت فمي قرب فمها، ثم ابتعدتُ سريعًا إلى الوراء.

حملتُ صينية الشاي، وفوقها الكوبان وعلبة السكر.

وأنا أعبر الصالة أبطأت خطوي لأهدئ تسارع ضربات قلبي، فشعرت بخطواتها خلفي، أسرعتُ فأسرعتْ، تنفستُ فسمعتُ صوت تنفسها، ودخلنا المطبخ.

ألقيتُ الكيسين الفارغين في سلة أسفل الحوض المعدني، ناولتها الصينية، فتحتْ عليها الماء بعدما وضعت علبة السكر في ضلفة دولاب المطبخ الخشبي أعلى الحوض، والكوبين على جانب الحوض.

غسلتْ الصينية سريعًا فابتلت بلوزتها بقطرات الماء، والتصقت ببطنها ونهديها فبانت حلمتاها الورديتان المنفلتتان دون حاملٍ.

وضعتْ الصينية على جانب الحوض الآخر، وناولتني كوبًا، غسلته تحت الماء ووضعته بالأعلى، غسلت هي الكوب الآخر، رفعت يدها لتضعه بجوار كوبي فلامس ذراعها خدي.

ضممتها بيني وبين حوض المطبخ، تشممتُ رائحة جلدها، وضعت فمي على خط رقبتها أسفل شعرها وضممته بين شفتيّ، ولامست بأصابعي أسفل ثدييها المبتلين من تحت البلوزة، انثنت هي إلى الخلف وأحسست بليونة مؤخرتها عندما سال لعابها على خدي.

ضممتها أكثر فلعقتْ بلسانها طرف فمي، فجأة أحسستُ بارتخاء قضيبي، وتصاعد العرق البارد على جبيني كحبات اللؤلؤ، ابتعدت عنها وخرجت سريعًا من المطبخ.

رفعت كفي لأمسح عرقي، وأعدت ترتيب هندامي، لحقتني إلى الصالة وهي تنهج.

استأذنتها في الرحيل وفي عينيّ نظرة إحباط وفي عينيها نظرة إحباط، عند الباب احتضنتها مودعًا فأراحت رأسها على صدري ومسدت بيدها ظهري، أبعدتها عني وأسرعت خارجًا.

عند ناصية شارعها شعرت برغبة شديدة في التبول، وبجواري مسجد تلاصقه دورة مياه عمومية فتوكلت وانسللت عابرًا بابها الحديدي بعدما تفاديت الرجل الممدد الملفوف ببطانية، النائم دومًا قرب بابها.

عبرت الطرقة المبللة ووقفت واضعًا يدي على الجدار أعلى المبولة وبيدي الأخرى فككت سحاب البنطلون وتبولت.

ما كدتُ أنتهي وأخرج حتى شعرتُ بعطشٍ شديدٍ، شربت ماءً باردًا من مبرد بجوار الدورة، وعطشت بعدما شربت فشربت وشربت، ثم شربت لكني لم أرتوِ.

سرت قليلاً وبي رغبة في التدخين، تذكرتُ علبتي المتروكة بالأعلى، وعندها رأيته.

أمامي كان يهتز على ساقه السليمة مبادلاً بينها وبين العرجاء، وعلى كتفيه تدلى حزامٌ جلديٌّ معلق في رقبته، ويقبض بكلتي يديه على أطراف اللوح الخشبي المعلق في الحزام، وكلما اقترب ازداد صوت الدبابيس المشبوكةٍ كسلسلةٍ على الحزام، وهي تحتك ببعضها ويحتك آخرها بأطراف الخشب، وداخل إطار الخشب أكياس المناديل الورقية وأكياس البسكويت وقطع الحلوى واللبان البنت واللبان الذكر وأمشاط الكبريت وعلب السجائر، ووسط الأشياء الموضوعة فراغ مربع بداخله شهادة طبية ملقىً عليها عملات الإحسان.

أوقفته ومددت يدي باحثًا عن فكة كافية لشراء علبة دخان، عددتها بعدما أخرجتها من جيب بنطالي الأمامي فلم يكتمل ثمن العلبة، رجعت بيدي إلى جيبي الخلفي باحثًا عن حافظة نقودي فلم أجدها، مددت يدي الأخرى فقبضت على إليتي الأخرى، وعدت بالأولى على الجيب الأول فعادت خاوية، وبالثانية على الجيب الثاني فعادت كأختها،

وباليمني على الجيب الأمامي الأيمن وباليسرى على الجيب الأيسر، وتصاعد العرق البارد على جبهتي وبانت الحيرة في عينيّ.

ظل أمامي ينتظر الشراء أو الإحسان، ويلعن في سره أسلاف أسلافي، أبقيت معي ما يكفي عودتي وألقيت على اللوح الخشبي ربع جنيهًا فضيًا، وأدبرت فسمعت صوت رنين المعدن على ورق الشهادات الطبية الموضوعة على الخشب، وسمعت صوته هامسًا يسب أمي ومضيت أمشي.

حين رجع بي صدى المسير قرب منزل منى، كانت قد مضت فترة من الزمن، حسبتها بعض ساعة، وحسبها هاتفي ثلاث ساعاتٍ وبضع دقائق، وكان الليل قد انتصف.

مضيت راجعًا إلى محطة الأتوبيس وكلي حذر من ملاقاة المخبرين راصدي تحركات زبائن آخر الليل، حيث أصبحت بلا هوية أحملها، وبالقرب من أحد أعمدة الإنارة رأيته.

كان يولي لي ظهره الطويل وبان كتفاه العريضان يحملان رأسه المربع، ويستند بأحد ذراعيه على السيارة الراكنة بجانبه.

تفاديتُ النظر إليه وفكرت في العبور للضفة الأخرى، وتراجعت خشية إثارة ريبته .

سمعت صوت خطواتي المضطربة فأبطأتُ، وسمعت صوت خفقات قلبي فأسرعت، وأدار بصره ناحيتي فتواجهنا؛ أقتربُ منه فتزداد نظراته شزرًا، ويدنو جسدي منه فتزداد قامته علوًا وتزداد هامتي خفضًا وينساب عرقي بخرًا، أحاول الابتعاد عن وجهه العابس دون جدوى.

حين كان بيني وبينه خطوتين، رفع ذراعه عاليًا ونزل بظله على وجهي، ولمحت في عينيه نظرة الاستجواب، ورأيت شفته السفلى البنية تتحرك، وأصطدم كتفه بكتفي وهو يعتدل عن اتكاءه على السيارة، كانت إحدى السيدات على الضفة الأخرى تناديه فعبر. تنفست الصعداء وهو يعبر الطريق، نظرت خلفي فلمحت قدمه المصابة ورأيت العصا ذات المقبض التي كان يسندها في ظل جسده، وسمعت صوت طرقات الكعب البلاستيكي الرمادي على الأسفلت الأسود.

وقفت انتظر ميكروباصًا وأحسب الحسبة للكمين بعد الميدان، حيث سأنزل وأكمل طريقي مشيًا.

وصل الأول لكني لم أركبه، كان عليّ التعلق به من الخلف كما فعل اثنان من قبلي، وجاء الثاني أقل ازدحامًا لكني لم أركبه، كان عليّ التدلي خارجًا معلقًا من بابه، وحين جاء الثالث كانت أسبابي قد نفذت وكان الزحام قد خف.

رزعتُ جسدي على كرسي ملاصق للباب وأسندتُ رأسي على الجدار المعدنيّ الداخلي، فسرى في رأسي المعروق برودة المعدن وسرى في جسدي المعروق نسيم الليل، وسرى في أذني صوت الشريط الدائر في الكاسيت، " أنا مش عارفني .. أنا تهت مني .. أنا مش أنا "، واسترخيتُ على هزة المحرك.

حين وصل السائق إلى غايته، بعد الميدان بقليل، صاح " الآخر يا أفندية "، وكان الكمين مختفياً.

بينما كنت أنزل اصطدمتْ يد أحدهم بمؤخرتي من الخلف، فارتددتُ إليها حفاظًا على ماتبقى لي من شرف، عندها شعرت للمرة الأولى بوجود هذا البروز.

تحسسته مرة أخرى فتجسد بارزًا، كانت قدماي قد استقرت على الاسفلت وشممت في الهواء رائحة العوادم تحملها النسمات، تسللتُ بأصابعي حذرًا فوجدته كما هو، حقيقة لا وهمًا، قبضتُ عليه فوجدتها.

اكتشفتُ أني حين وضعت يدي سابقًا وضعتها بينها وبين قماش بنطالي الجينز، فلم يَلْحَظ مَلْسُ جلدي مَلْسَ جلدها.

ابتسمتُ، وعبرتُ الطريق ذا الاتجاهين إلى المحمصة المقابلة، اشتريتُ ثلاث علب من الدخان وبعض الفول السوداني، ومشيتُ في هدوء الليل أدخن بمنخريّ وأقرقش الفول السوداني بأسناني، وبفمي أصفر لحنًا حملته من شرفة منى.

جيجي

أو حين تكون الحكاية الجانبية أجمل[٣]

[٣] في الرواية كما في الحياة، في مصر الجديدة أنتظر الأتوبيس فيأتي المترو، أنتظر المترو فيأتي الميكروباص، أمشي إلى غايتي فيأتي الثلاثة معًا .
وفي الرواية تبدأ الحكاية الأولى ثم تنحرف إلى طرقٍ جانبية أكثر إثارة، وككاتب صالح مطيع يتبع القوانين غير المكتوبة، انحرفت .

٩

لا عمل يناديني هذا الصباح، تعطلتُ فتحررت نسبيًا .

انقطع انتظامي المهني، أستيقظ حين أرغب وأدخل الحمام فتطول جلستي.

القاعدة المبللة من تحتي والسيجارة المشتعلة في يدي وجلستي الوحيدة، وأمامي الماء في برميل أستعمله كبديل لجهاز الطرد، ألعب في الماء لأرطب الحر، أنظر في قاع الماء الأسود، كقاع أي بحر في الليل، أسود.

والبحر يصب في النهر وفي الليالي قاع النهر أسود، والنهر تخرج منه الترع، وفي الليالي قاع الترعة كقاع النهر كقاع البحر كقاع البرميل، أسود.

على شطها وبرها خيالات ظل الحلفا والهيش والبوص، وعلى ضوء قمر صيفي تشتبك أدخنة أول سيجارة مسروقة من خلف ظهر الأهل.

ستطول جلستي، لا شيء يشغلني، وعلى صفحة الماء انعكس قاع الماء وضوء لمبة النيون في الخارج، سأطفئها وأعود.

تنطفئ ويخبو ضوءها فينعكس على صفحة الماء القاع الأسود للترعة ووجه القمر الأبيض والتراب المُنَدى برائحة بول الحمير التي تتخذ المكان مراغةً في الصباح، والحلفا والهيش في ذلك الحقل البعيد على مدخل القرية.

" يا أم حازم ابنك لوحده بحري البلد "، " خافي عليه لأحسن يجن زي أخوه ".

سينجذب إذًا ويندهه الغياب فيصير هو أخاه، ويصير أخوه هو .

أستلقي على التراب بجانبِ الهيش وأرسم رسومًا كتلك التي على حوائط غرفتنا المشتركة، وعلى البعدِ كوخ لأهل الطريق وأهل الطريقة يمارسون عبادة الحب على ضوء القمر .

لمين يا قمر يا قمر

تطلع لمين .. تسهر لمين

لمين .. يا قمر .. يا قمر

عبد الرحيم منصور

" آه .. آه .. آه "

صراخ نوبة الهياج، مابين الجنون والفصام، وما بين جنون الفصام وفصام الجنون، والصرع والأرق في ضوء القمر، البدر منتصف الشهر العربي ميعاد النوبة المرضية في غرفتنا المشتركة، هو وأنا، أنا وهو، ومنزلنا القروي .

سأصير أنا أنا ويصير هو هو ونتبادل، فأصير أنا هو ويصير هو أنا، ونصير أنا هو وهو أنا، ويصير كلانا منزلنا القروي، ويصير منزلنا هيشًا محروقًا على ضفة الترعة .

حقنا من وَصلٍ وَصلٍ
ثم من وَصل فَصلٍ : أنت وأنا
وِلعٌ أنت وِلعٌ أنا ،
سأعيش كأني لا أسمع بالضمائر

جلال الدين الرومي

ستطول جلستي، لا عمل أعمله ولا شغل يشغلني، ودخان سيجارتي قرب مبسمها يصعد إلى سقف حمامي، يرسم خطوطًا أثناء الصعود.

هذه إذًا خطوط أخرى، وتلك خطوط سابقة تركتها على تراب شاطئ الترعة في ضوء البدر وظلال الهيش .

ورسوم أخرى تلك التي على جدران غرفة بيتنا القروي، رسم لرقبة طويلة ورسم لعمود طويل يصعد كمئذنة ورسم لملوية كملوية سامراء وآخر لبرج كبرج بابل.

طال الغياب واشتد العناء وضج مني العظم والسمع والبصر، فأدركني يا غائب وأغثني .

حائطٌ مشوه ورسوم مشوهة، وسرير مبتل ببول أخ مريض، بعقل فاقد التحكم، وأنا المجاور، وشباك صغير أعلى الجدار.

نافذة صغيرة في شقتي الوحيدة أرى منها برج الكنيسة، وأتأمل الظلال على جرسها الكبير، والخطوط الحمراء على برجها الأصفر .

أنا المصلوب يا يسوع، وأنا الصليب، أنا الخشب المثقوب، أنا طريق الآلام، أنا الجلجثة.

" يا أم حازم، خديه لاحسن يجن " .

والبدر أقرب إليّ، وخص العابدين في ذلك الطرف من القرية، وفي الطرف الأخر خص الحشاشين الذين يدخنون في ظلام المحاق، وطريق معهدي الديني ولوح كتابة أخط عليه كتابتي.

في البدر ينتصف الشهر، وفي الصيف يحل مولد سيدنا الولي العابد، فيصوم العابدون ويغادرون خصهم البعيد ويأتون حتى مقامه في وسط القرية، يتطوحون في حلقات الذكر، أرمي ألواحي وكتبي المدرسية وأتّبعهم .

ما حيلة العبد والأقدار جارية عليه　　في كل حال أيها الرائي
ألقـاه في اليم مكتوفاً وقال لـــه　　إياك إياك أن تبتل بالماء

الحلاج

والبدر يُلقي بظلاله البيضاء على الصفحة السوداء، والأقدار السوداء ملقاة على قلبي الأبيض .

تعوي الذئاب، " أعهو .. أعهو "، تنادي البدر ليلة التمام.

أخاف عواءهم، وأخشي حفيف النسيم مابين أعواد الغاب، أخشاه وأحبه، أحبه فأخشاه، هو من يحميني في حضن الغياب في بطن الغاب عن أعين الأصحاب، " حازم أخو المجنون "، من خلف ظهري أسمعهم كما أسمع الذئاب، " أعهو .. أعهو "، هي الآن تعوي تنادي القمر.

سيقول السفهاء من قريتنا أنها تنادي المجاذيب كأخي فيرتجفون في أسرتهم وترتعد سرائرهم، وأنها حتمًا ستناديني ذات يوم.

تأخر النداء، أريده الآن، هربي منهم يلجأني لوحدتي معهم فمتي أنادى، ناديني الآن يا ندائي وعليّ التلبية، نادي .. نادي .. نادي.

ستنتهي سيجارتي، أشعل أخرى، أبللها بيدي التي تلعب بالماء الموجود في البرميل تحت الصنبور في حمامي المتهالكة جدرانه بطلائها الزيتي المقشر، وأنا مسترخٍ على القاعدة.

في البدر تصفو الرؤى ويعلو ماء النهر قليلاً فتعلو مياه الترعة، في البدر صرخة نوبة الهياج، في البدر أهج من منزلنا إلى الهيش والحلفا.

خطي الآن على صفحة الماء أصغر، أكلما نكبر تصغر خطوطنا وتتلاصق السطور، فهل نبدأ كبارًا ثم نصغر، أم نكبر فتقل امتداداتنا الخارجية ونتعلم أن نُصَغِر من تعبيرنا عن ذواتنا ليتسع المكان لكل الذوات الأخرى من حولنا فيصغر خطنا من ضمن الأشياء التي نُصَغرها لنتعلم الانتظام.

" هنودي حازم لخالته يكمل علامه "،" اللي تشوفه يا حاج "،" وهنحوله لعام بدل الأزهري "،" كله بأمرك يا حاج "، " خايفة عليه يا حاجة "،" قلب الأم وكفاية علينا واحد "،" قدر ربنا، ده ابتلاء لينا إنه أتولد كده ".

الهرب منهم هروب إليهم، يفرون من عدوى الجنون، خشية الفضيحة، " كفاية علينا واحد، لو اتنين البلد تزفنا ".

حكمت يا بين بخنقي، بجبح الحية

لا أم تبكي ولا عمة ولا خية [4]

سأخرج الآن من حمامي وأضع قدمي في الشبشب المبلل، وأشعل بخورًا برائحة الصندل، الرائحة الخليط بين التوابل والأخشاب العطرية.

دخان البخور يتفكك سريعًا وينعكس ضوء الشمس على الجدران الزيتية المقشرة للصالة الصغيرة.

" هتنام في الصالة يا حازم "، " بنات خالتك زي اخواتك يا ابني " .

والنوم على كنبة الصالة الضيقة، أرفع ساقي وأثنيها في صالتي الوحيدة في جلستي الوحيدة وأثني ساقيّ الطويلتين لتحتويني صالة شقة خالتي في نومتي الوحيدة، منذ رحلت عن القرية لم أر والدتي سوى ساعات ثم غادرت.

[4] من كتاب الأدب الشعبي لأحمد رشدي صالح .

والسنين تمر وتكر، والمجموع بسيط يتلاءم مع الكنبة البسيطة في الصالة البسيطة للشقة البسيطة، والتنسيق، مكتب تنفيذ سيناريو لا ندريه ويسري علينا، يلقيني إلى معهد الحاسب الآلي .

" حازم بيدخن ويجوز يكون بيحشش، المعهد كله بايظ والواد بايظ والبنات بتكبر".

يضيق بي المعهد وشقة الخالة فتتسع الحياة، تأخذني الأحزان إلى كتابة خواطر ساذجة، وتحملني الكتابة إلى المقاهي إلى الندوات إلى البارات.

في شقة خالية بإيجار أسكن، وفي جريدة صغيرة أعمل، أتركها وأترك سهام زميلة العمل والسرير.

وأنا الآن في جلستي الوحيدة على كنبة صالة شقتي ذات الحجرة الوحيدة .

يوشك عود بخور الصندل على الانتهاء، يتفكك دخانه بعنف وتتصارع حلقات الدخان.

أستلقي ونظري إلى سقفي، أشاهد صراع حلقاتِ الدخان في الصعود إلى الأعلى .

١٠

بمكالمة هاتفية أستدعيت لمقر عملي السابق، والسبب المُبلغ إليّ : إعطائي بقية مستحقاتي المالية، وإلقاء أوراقي التي تشغل حيز درج مكتب من مكاتب الجريدة في وجهي.

عبرت الطرقة الطويلة التي تفتح عليها أبواب مكاتب الصحفيين، التي يمارس فيها الحر هوايته الأبدية في سلق البشر، واتجهتُ إلى المكتب الوحيد المكيف لأسباب تقنية تتعلق بأجهزة الكومبيوتر والطبع والجمع.

بابتسامته الصفراء المحببة لديه مصحوبة بـ" حمد الله ع السلامة " من تحت الضرس، استقبلني رئيس الديسك، وألقى في وجهي ملفًا بلاستيكيًا كنت أضع فيه أشيائي؛ أقلامًا من الحبر السائل لم أكن قد كسرتها بعد، وأخرى من الحبر الجاف وأوراقًا صفراءً كنت أشخبط عليها شخابيطًا مشخبطة، وأخرى بيضاء طبعت عليها الصفحات الأولى من عوليس في محاولة خائبة لقراءة جويس بالإنجليزية.

وضعت الملف تحت إبطي وطالبته بنقودي فناولني مظروفاً به مرتب نصف شهر.

مسرعًا عبرت الطرقة الطويلة، وقبل الباب الخارجي مررت على العجوز عامل البوفيه، لأعطيه ما تبقى له من حسابٍ.

شاكرًا تلقاه بعدما ألقى في سلة أذني ثلاثية وداع تقليدية، " مع السلامة "،" هتوحشنا"،" خلينا نشوفك "، بدافع من الفضول مصحوبًا برغبة في استراحة قصيرة بصحبة كوبِ ماءٍ مثلج على جدرانه شبورة، قبل استئناف المباراة الأبدية مع حر الصيف، سألته عن سهام، فأجابني بأنها تركت العمل منذ شهرٍ بعدما انقطعت عن الحضور إلا لمامًا، وإنّ أنباءً وصلته عن عملها في جريدة أخرى.

أكمل كلامه وأكملت كوبي، عدلت من وضع الملف وخرجت، نزلت السلم سريعًا لأجد نفسي على الاسفلت المشوي متجهًا إلى محطة المترو.

بقوة الدفع دخلت المترو، وبتدخل غير متوقع من العناية الإلهية، " أحمدك يا رب "، وجدت مقعدًا خاليًا، رميت جسدي عليه وأرحت ظهري فارتحت.

من باب قتل الوقت، أخرجت الأوراق التي طبعتها من عوليس وأخذت أتلو عباراتها اللاتينية، ينقصني فقط عباءة سوداء بقلنسوة طويلة تغطي وجهي لتصبح تعاويذ جويس سارية المفعول، فأسخط الركاب قرودًا أو أجعل مراوح العلبة تدور، ترى لو عاش جويس في العصور الوسطى وكتب تحفته تلك، هل كان مصيره الخازوق والحرق حيًا أم ثقب قلبه بوتدٍ خشبي، أم أن عوليس قادرة حتى على سخط سادة محاكم التفتيش جرذانًا قارضة.

قرأت الجمل اللاتينية بدءًا من **Introibo ad alteri dei** ، والتي اعتقدت دومًا أنها سبًا للدين، أستغفر الله العظيم، حتى وصلت إلي آخر جملة في أوراقي المطبوعة **! Zut Nom de dieu** ، والتي اعتقدت دومًا إنها " اخرس باسم الرب "، نخرست.

عن أوراقي رفعت بصري ومن حولي أبعدت البوم والغربان والقطط السوداء، وتجولت بعينيّ على الركاب الذين سخطتهم قرودًا ونسانيسًا، ووسط هذه الجبلاية المعروقة كريهة الرائحة، رأيتُ ما رأيت.

نجحت تعويذة من تعاويذ جويس في تحضيرها وإحضارها، أخيرًا ظهرت فائدة قراءة عوليس بالإنجليزية.

أمامي كانت تقف بعينيها الواسعتين التين عادتا عسليتين، وشعرها الذهبي، بينما اختفى بنطالها ذو الحرف الخلفي وحل محله فستانٌ صيفيٌ قماشيٌ خفيفٌ أظهرت جونلته ساقًا ملساءً مغرية.

بتزلف أخلاقي زائف قمت لها عن مكاني وأجلستها، ووقفت أمامها لتطيب حاجة في نفسي، تجلس الصبايا فترتفع التنانير.

أخذتْ عني ملفي ووضعته على حجرها، وأخذتْ عني بصري ووضعته على منبت نهديها الظاهر من فتحة الفستان، وعرفت خطأ تحليلي السابق عن مؤخرتها التي تكبر قليلاً عن صدرها.

ازدحمت العربة جدًا وجاءت محطتنا سريعًا جدًا، ناولتني ملفي وقامت، التصقتُ خلفها ونزلنا.

سبقتني بخطوات وهي تصعد درجات درج الأنفاق، سارت إلى الإمام، حتى خف زحام الصاعدين وتزاحم الهابطين، فهمست من خلفها قائلا " لو سمحتي " .

- أيوة يا حازم .

أجابتني وهي تلتفت إليّ.

تمالكت نفسي من دهشة معرفتها لاسمي وقلت لها :

- ممكن نشرب فنجان قهوة سوا.

- ممكن أنا رايحة هناك، يالا بينا.

وسرنا سويًا إلى المقهى، تعارفنا وجلسنا حتى المساء، وحين قمت بتوصيلها إلى منزلها كنا قد صرنا صديقين.

١١

هذا يومنا العاشر منذ تعارفنا أنا وهي، هذا يومنا العاشر.

حتى أول أمس كنا نلتقي كل مساءٍ على ذات المقهى، حتى صرنا مزار أعين الزائرين، وصرنا من معالم المكان الثابتة، هنا شجرة على طرف الممر الموصل للمقهى، وهناك مدخل المقهى الزجاجي، وفي المنتصف بينهما دومًا يجلس جيجي وحازم.

حين اكتمل القمر قالت لي أنها ستسافر إلى الإسكندرية في زيارة قصيرة تستغرق يومين، ترى خلالهما مدينتها وأصدقاءها ومنزلها وأسرتها، وأنا الآن منتظراً عودتها، من أمامي عبرت صديقتها هدير ذات الابتسامة الدائمة وحيتني بهزة من شعرها المنفوش كذيل قطة فارسية مذعورة.

دخان سيجارتي يبدو شفافًا أزرق بفعل التداخل بين ضياء نهاية البدر وضوء اللمبات النيون، وخلفي موقد الفحم المشتعل وفي يدي ولاعتي نصف الفارغة أعبث بمكبسها الأسود.

(غريب أمر غازات الولاعات، في الصيف يطير سريعًا، يوم ودعت جيجي ملأت تلك الولاعة الصغيرة ذات الكشاف الدقيق في عقبها، الذي يضيء بضغطة من زر

جانبي ويقنعك الباعة أن ضوءه الأحمر الشاحب " ليزر يا باشا "، وأنقدتُ مالئ الولاعات نصف جنيهاً من الفضة، اليوم طار غازها وصار لهيبها، الضعيف أصلاً، يشحر).

وعبر الأيام الماضية تطورت طرق مصافحتي لجيجي بسرعة كبيرة، من ملامسة تجلى بأطراف الأصابع، إلى اشتباك التحامي لفتحتيّ الإبهام وباطن الكفين، إلى تلامس سريع للخدين إلى احتضان عنيف، وفي اليوم الرابع لتعارفنا صحبتني لمقر عملها، فيلاّ صغيرة من طابقين يحيط بسورها الواطئ أشجار ملتفة، ترسم بداخلها وتصمم الإعلانات.

(للفيلاّ قبو وجراج، لم أدخلهما، لكنّي أحسست بأن بابهما المغلق ذا النقش القديم أعلاه، يناديني) .

وفي الليلة السابعة صحبتني لمنزلها، بتنا سوياً ولم أخذها كعادتي في الآونة الأخيرة.

(عارية، لاشيء يكسو بدنها سوى ضوء القمر وقطرات العرق، وقفت أمامي وأخذت بيدي مررتها على جسدها؛ على شعرها الذهبي ورقبتها الطويلة وثدييها المستديرين وخصرها الملفوف وأردافها المكتنزة، ونزلتْ بكفي وضغطت عليه بفخذيها فانضغط وابتل بمائها.

سال من عينيها خمرهما العسلي، ومر بين ثدييها وعلى بطنها المشدودة وعلى سوتها المنحنية إلى الأسفل ونزل إلى شفرتيها، وضعتُ بظرها في فمي وامتصصته بتأنٍ وعضضته بشفتي دونما أسنان، وضعتْ في فمها قضيبي وداعبت رأسه بلسانها وامتصته بتأنٍ وعضته على طوله بشفتيها دونما أسنان.

وبينما أضاجعها وقضيبي داخلها وهي على بطنها مستلقية، ويداي ممسكتان بردفيها وعلى كتفيّ أطراف أصابع قدميها يلامس كعباهما خديّ، رأيتُ عند نهاية خط ظهرها ومنبت عجيزتها وشمٌ غريبٌ كرأس عنقاوين متعاكسين ملتفين حول بعضهما، يحيطهما شجرٌ شائكٌ ملتفٌ وبينهما حروفٌ متقطعة).

وبالأمس هاتفتني لتسمعني صوت البحر.

(رائحة اليود النفاذة ولون الزبد الأبيض وأصوات الموج العنيد يؤدي مهمته الأزلية في إغراق الصخور برذاذه وطعم مائه المالح، كل ذلك أتاني في أذني اليسرى فأدرتُ الهاتف على اليمنى لتسمع هي الأخرى ولا تغضب.

وذات صباحٍ بعدما أنهيت حمامي اليومي، اكتشفتُ إني أرتدي فردتين من شبشبين مختلفين، فابتسمت لما حدث كنوعٍ من عدالة توزيع البلل).

قالت لي أنها أحبتني وأني لذلك صرت مؤتمنًا وقادرًا على حمل السر الذي تحمله، وأنها ستكشفه لي حين تأتيني.

(السرُ تلك الكلمة التي تكونت من عبث حرفين، تلاعبا فتزاوجا دون أن يدريا الغموضَ المتولد من إقترانهما .

حرفان فقط هما ما يشكلان غموض السرِ ويشكلان فعل الأمر سِرْ، من السير والمسيرة والسيرة، وبين السر وفعل الأمر سِرْ محض شدة لو انحلتْ يبدأ المسير، والسر دومًا سر بستر وستر لسِر، وبين السر والستر محض تاء تيه يبدأ مع انكشاف الستر، والسر أسر، وبين السر والأسر ألف منتصبة تضرب من عصى ستر السر وكشفه) .

وعلى غير عادتها التي تعودتها، تأخرتْ، وربما هو تأخر إعدادي لحمل السر أو تأخر إعدادها لكشف الستر عن سرها.

أمامي ورقة كنت أخط عليها اسمينا وفوقها قلم، طارت من أسفله حروف اسمينا وحلقت في الفضاء.

(طار الحاء من أول اسمي بصحبة الياء من آخر اسمها، صعدا عاليًا ثم هبطا، فاصطدما برأس درويش عابر يسأل الصدقة فصرخ مصعوقًا " حيّ "، ولم يلحقه أحد.

لم يبقَ على الورقة سوى ميمي المفردة من آخر اسمي وجيمها المربوطة من أول اسمها، غازلت جيمها ميمي فاستعصمت ميمي، تشاجرا وعلا صياحهما.

قال الجيم للميم : أنتِ دائرة جوفاء مهملة، لا تملكين من النقط شيئًا .

وقالت الميم للجيم : في آخري أنا المهملة انتصابًا دون عوج، أما أنت فتشبه انحناء الهلال.

فقال لها الجيم : لأني عربي أصيل غير أعجمي، أشبه الهلال حين أنفرد وحين أرتبط أشبه منقار الصقر الصياد.

فردت عليه الميم : وأنا دائرتي الجوفاء فم الإبل المزمومة، وحين أنفرد أكون كمنقار الحمامة واليمامة ومن صوتهما " امم .. امم " أتيت .

وتراضيا على أصلهما العربي فهدأ صياحهما، وعادا للغزل فانشبكا، جيم وميم، جُم).

وهاهما قد أتيا، جاءا قبلها وألقيا السلام.

قالا أنهما سينتظرانها بصحبتي، ولما عبر العابرون ولم يلحظوهما أدركت أنهما السر.

(وحده أدركهما حين عبر بجوارهما، ورأيت عينيه من خلف زجاج نظارته السميك تتجها إليهما، أحمد ذلك البائع المتجول الذي لا ينتظر ردًا ويصرخ في أذن أي عابر بقوله الآلي دون حتى أن ينتبه العابر لقوله .

حين عبر بجوارهما نظر إليهما وألقى بتعويذته الأبدية " خمس أقلام باتنين جنيه، ماكنتين حلاقة وعليهم واحدة باتنين جنيه، ثم ألقى السلام ومضى) .

بمجرد رؤيتهما عرفت أني صرت مؤهلاً وأني بلغت مقام قدرة الكشف، وحين جاء عامل المقهى سحب الكرسي من تحت أحدهما فجلسا متلاصقين.

ذكرٌ وأنثى، قال ذكرهما أنهما كثيرًا ما يتعرضان لذلك، حتى أنّ أصحاب القدرة على رؤيتهما ينكرونهما كي لا يتهموا بالجنون، ومع الإصرار على الإنكار يفقدون بالفعل القدرة على الرؤية.

" ذات يومٍ جلس أحد أصدقاء جيجي فوقي دون أن يشعر بي " قال لي .

" ذات يومٍ حملتني إحدى صديقاتها في حقيبتها ومضت " قالت لي .

حين جاءت جيجي سألت :

- عرفتهم ولا هما اللي قالوا لك .

أجبتها :

- عرفتهم طبعًا لوحدي .

ففرحت، لكني لاحظت على وجه الذكر بعض الكدر، وألقي في نفسي أن كدره بسبب كشفها للسر ولو لحبيب.

ولت وجهها شطره فبان داخل عينيها مبتسمًا، ووليت وجهي شطره فبان على وجهه الكدر.

قالت لي أنهما سرها الأكبر، وأني بقدرته على حمله معها ستكون أبدًا لي وسأكون أبدًا لها، ولا شريكَ بيننا.

هاتف أتاني بعد قولها ذكّرني بأن السر لا يكشف، وكل كشفٍ للسر يتلوه عقاب.

من خلفها كانت الأنثى تكبر وتبتلعها، تكلمها جيجي فتراها صغيرة، وأراها كالجواري المنشآت في اليم، كالأعلام.

ناولتُ جيجي سيجارة وناولتُ روحي سيجارة، أشعلتُ لجيجي السيجارة وأشعلتُ لروحي السيجارة، نفخت في فمها ونفخت في فمي، فاشتبك دخاننا ودارت حلقاته وامتزجت.

فَرِحا كثيرًا لَما شاهدا ما بين دخاننا، ضحكا لنا وغادرانا وانصرفا .

قالت جيجي بعد رحيلهما :

- أنا مسافرة أسبوع كمان وهابقى أكلمك كل يوم .

ثم وقفنا واحتضنتها.

وفي ضمتي لها عبثتُ بأطراف أصابعي على خصرها العاري الباين من تحت البَدي القصير، وتحسست الوشم، وجدتُ رأسي عنقاويه بارزين وشجر الشوك حولهما شائك، وهاتف أُلقيّ بداخلي "ستغيب كثيرًا عنك، كثيرًا جدًا ستغيب، فاصبر واحتسب" .

١٢

غابت جيجي أسبوعًا زرت خلاله منزل منى، ومر أسبوعٌ آخرٌ ولم ترجع.

بعد خمسة أيام من سفرها انقطعتْ اتصالاتها الهاتفية، وفي اليوم التاسع من سفرها عثرت على رقم هاتف عملها، أدرتُ الرقم ثم أنصتُّ إلى هسيس سماعة لم ترن منذ خلقت.

بحثتُ عن صديقاتها، ولا أثر.

وفي صباح أول أيام الأسبوع الثالث من سفرها ذهبت إلى مقر عملها في الفيلاّ الصغيرة ذات الطابقين والسور الحديدي الواطئ بالشجر حوله .

من بعيد كان الباب يبدو مغلقًا، ومغلقًا يبدو حين اقتربت، ومغلقًا ظل، حتى رآني فانفتح.

دخلت وانغلق من خلفي بصريرٍ مُصم.

على الممر الترابي بين الباب الحديدي الخارجي والباب الخشبي الداخلي خطوت، وتحت أقدامي تتكسر أفرع الأشجار الجافة والأوراق الذابلة.

دهان الباب الخشبي تساقط، مفاصل الباب الخشبي ذابت، "لا أحد يسكن هنا .. فارحل"، هذا ما تبلغ به العلامات على الباب وهذا ما يقوله التراب المتراكم على مظلة الباب.

برغم العلامات ضغطت على الجرس، وضد إرادة العلامات زاد ضغطي على الجرس فانفجر الجرس في وجهي وأسقط الانفجار تراب المظلة فوق رأسي.

برغم العلامات طرقت الباب بيديّ طرقًا، وبرغم إرادة العلامات لم ينكسر، أعدت الطرق مرة ثانية فلم ينكسر، وثالثة فلم ينكسر، ورابعة .. لم ينكسر.

دفعته بقدمي بقوة، فاندفع إلى الداخل وعاد إليّ مرتدًا عليّ فأسقطني على الدواسة الخشبية أمامه فتكسرت وكدت أسقط في قعر الخشب.

مستندًا على كفيّ وقفت، وحول الفيلاّ درت بحثًا عن مدخل خلفي، ولم أجد.

درت دورتي الثانية، وكل نوافذ الفيلاّ مغلقة بشيشٍ خشبيٍ ممسمرٍ بمساميرٍ صدئةٍ، وقرب انتهاء دورتي الثالثة، وجدته.

هاهو المفلوت طرفه الملخلخ على إحدى النوافذ، هاهو اللوح المهترئ خشبه، فإذا جذبت ثم جذبت سينخلع ويسمح لي بالدخول.

حاولت خلخته فلم يتلخلخ رغم ذوبانه، عاودت الخلخة فلم يتلخلخ، جذبته لأنزعه فلم يُنْزَع، بكلتيّ يديّ أمسكته وأسندت قدمي إلى جدار نافذته، وشددته فانخلع في يديّ وألقاني على الباب الحديدي المموج للقبو والجراج، وقعت عليه بظهري فانفتح وسقطت بالداخل.

ثلاث درجات تدحرجتها إلى الأسفل، ثم انتصبت واقفًا لأخرج من القبو فسد الباب سدًا، جريت نحوه لأرفعه فألفيته حائطًا خراسانيًا صلدًا، وكان النقش أعلاه يومض ومضاتٍ خافتةٍ.

صرتُ تحت سقف القبو، وشعاع ضئيل من ضوء بسيط يتسلل من خروم في النقش القديم أعلى الباب المغلق، وحولي جدرانٌ صفراءُ معتمة.

خطوت خطوتين حتى اعتادت عيناي على الظلام، وعلى البعد لمحت ممرًا معتمًا.

دخلته وتحسستُ خطوتي فتعثرتُ في أول درجات سلم دائري نازل إلى الأسفل، تلمست طريقي ونزلت.

رحلة أخرى أبدأها دون رغبة مني، ودون معرفتي لصاحب إرادة البدء .

أنهيتُ المجموعة الأولى من السلم اللولبي ووقفت في منتصفه ألتقط أنفاسي وألتمس بقية طريقي، درجات السلم بيضاء، وجدرانه الدائرية بيضاء، وعلى المدى المعتم لاشيءَ يبدو سوى دوامةٍ بيضاءٍ لسلم لولبي تقاطعها فواصل الدرجات بخطوطٍ سوداءٍ، رقعة شطرنج ضخمة وأنا بيدق تائه فيها لا يدري متى يقرر صاحبه تحريكه ولا يسأل أيّان انتقاله، جندي ضعيف معزول منفرد، لا يدرك الإرادة المفروضة عليه لكنه يدرك حدود حركته، "إلى الأمام سر، وأبدًا للخلف لا تدر وجهك"، فامتثلتُ وتوكلتُ وأكملتُ داومتي حتى بلغت قعرها.

على جدار نهاية الدرج استندتُ، ومن خلفي سمعت صوت أقدام مسرعة نحوي وأصوات أشياء تقذف فوقي، رفعت رأسي فاستقبلتها عبواتٌ فارغةٌ وأكياسٌ فارغةٌ وزجاجاتٌ فارغةٌ وطعامٌ فاسدٌ وسلةٌ مهملات، جريت وأنا أمسح وجهي بيديّ، ورأسي محنية إلى الأسفل، وسمعت الأصوات مسرعة فأسرعت أجري وأنا لا أري الطريق.

أصطدم كتفي بشيءٍ ما، رفعت رأسي فارتطمتْ بشيءٍ أعلاها، مددت يدي داخل جيبي أبحث عن ولاعتي فلم أجدها، حاولت إخراج يدي اليمنى من جيبي فانحشرت، وأحسست بمن يمسكني من الأعلى، حاولت إخراجها مرة أخرى فأزداد الضغط على كتفي، بحثتُ عن يدي اليسرى فلم أجدها، أعدت البحث فوجدتها على نخذي الأيسر، ومن خلفي صوت الأقدام، تسرع وتقترب.

رفعتُ يدي اليسري وحاولت الالتفاف ناحية اليمين فأحسست بمن يمسك جانبي الأيسر، حاولت الالتفاف ناحية اليسار فأحسست بمن يمسك جانبي الأيمن، حاولت تحريك كتفي الأيمن فازداد الضغط عليه، حاولتُ تحريك كتفي الأيسر فازداد الضغط عليه، كانت الخطوات قد توقفت وأمسكت مخالب ذات أظافرٍ رفيعةٍ بساقي.

دفعتُ جسدي إلى الأمام نخبطتُ رأسي من الخلف وسقطتُ على الأرض، والمخالب ممسكة بساقي، اعتدلتُ على ظهري فزحفتْ المخالب وسارتْ على صدري وأخذتْ تمزقه.

دفعتها فتشبثت، شددتها وألقيتها ووقفت، فعادت لتمسك ساقي فركلتها، وكان قميصي قد تمزق من أعلاه ومن على صدري.

ارتكنتُ على جدار صادفته، وتشبثت المخالبُ مرة أخرى بساقي فركلتها بعيدًا، تحسست الجدار فوجدتُ مصباحًا صغيرًا، رفعت فتيله فلم يشتعل، نفختُ فيه فلم يشتعل، مسحته وحاولت إشعاله فلم يشتعل، مسحته ودعكته ونفخت في فتيله فلم يشتعل، رميته من يدي فارتطم الأرض بعنفٍ، وأشتعل.

على لهبه الضعيف أضاءت الحجرة التي دخلتها بضوء خافت سمح لي برؤية الكوة التي انحشرتُ فيها، وبرؤية القطة التي مزقت ملابسي تلعق فراءها.

تناولت المصباح، زدت شعلته وعلقته على الجدار ودرت في الغرفة ببصري، محور الغرفة تمثالٌ لنقش يشبه الوشم المطبوع على خاصرة جيجي، ويرتفع النقش على قاعدة حجرية بحجم شخصٍ قائمٍ، والجدار الذي كنت أتكئ عليه عن يسار التمثال والقاعدة الحجرية.

أمامي، عن يمين التمثال والقاعدة الحجرية، جدارٌ عليه ثلاث لوحات.

اللوحة الأولى مرسومة بالفحم على ورق أبيض، تصور مدخل قرية كقريتي، وطفلاً جالسًا في إحدى يديه كتاب وفي الأخرى فرع جاف يخربش به ترابَ شاطئ ترعة ينعكس عليها القمر المكتمل بدرًا، وعلى البعد خص نكص الدراويش في قريتي، نحوه يطير عصفورٌ صغيرٌ.

اللوحة الثانية مرسومة بألوان الجريكو الرمادية المتدرجة إلى الأزرق، وتصور مدخلاً لشقة تقليدية، بابها الموارب في مُنتصف اللوحة يقسم ممراً إلى الداخل نصفين، والباب حديديٌ مشغولٌ بزجاجٍ أزرقٍ وعلى سقف الممر حروف متصلة في شكل بيضاوي داخله عصا ملوية، وعلى البعد بابٌ مواربٌ لغرفة أخرى.

اللوحة الثالثة مرسومة بتدرجات اللون الأحمر، من الأحمر القاني إلى البرتقالي الشفقي الفاتح، وتصور شخصين يقف أولهما في مقدمة اللوحة موليًا ظهره للرائي، ويشكل جسده ثلاثة أرباع مساحتها، ويغرس يده في جبهة الثاني الجالس على مكتبٍ خشبيٍ لا يظهر سوى طرفه، ويظهر من الثاني خده وكتفه من خلف ذراع الشخص الأول.

هذا هو الجدار الأيمن أما الجدار الأيسر فكنت مستندًا عليه قبل أن يحل محلي المصباح المعلق ليضيء الغرفة، لأتفقد التمثال إذًا.

على قاعدة التمثال الحجرية من الخلف تمثال آخر لامرأةٍ تشبه جيجي، وربما تكون هي التي نحتته، شفتاها الممتلئتان الملفوفتان تشبهان شفتيه، وثدياها الناهدان بحلمتيهما المنتصبتين دومًا يشبهان ثدييه وحلمتيه، ولم أكن أرغب سوى في قضاء بعض الوقت معها من آنٍ لآخرٍ فتكون مهربي من مسيرة حياة فرضت عليّ، سأقبلُ تمثالها حتى أراها .

وضعت فمي على فم التمثال، وقرصتُ حلمتيّ التمثال، وأخرجت لساني ولعقت شفتيّ التمثال، فبان تحت قدميّ موضعُ قدمين، خلعت نعليّ وطابقت قدميّ على موضع القدمين فانطبقا، صعد النور من موضع القدمين وغمرني نور بنفسجي من الأعلى والتقى النوران على أمر قد قدر، ونبتت بين فخذيّ التمثال زهرة بنفسج، وقبضت يدي اليمنى حول مفتاحٍ وورقة ظهرا بباطن كفي.

المفتاح حديديُ قديم بثلاثة أسنان مستوية في آخره وبمقبض يشبه الوشم المرسوم على خاصرة جيجي، أما الورقة فلم أستطع تفسير سطورها المطلسمة المتشابكة في دوائر تشبه دوائر البروج.

على ركبتيّ جثوت، وجلست أمام زهرة البنفسج فغمزت لي أوراقها، ملتُ برأسي أمامًا لأشمها، ومددت يدي لأقطفها.

قطفتها، فأنفجر التمثال وانفجرتْ الحجرة وأنفجر السلم الدائري وأنفجر القبو، وألقاني الانفجار على رصيف الفيلاّ الخارجي.

لا أعلم كم لبثت على رصيف الفيلاّ أمام الباب الحديدي الخارجي المغلق، لكني انتبهتُ على صوت شيخ كبير يهمس في أذني قولًا لم أتبينه، وعدت إلى منزلي بملابسي الممزقة

.

وفي الليل بينما أحاول النوم ونظري مثبت إلى الأعلى، ارتسم على السقف همسُ الشيخ مبينًا، "ارجعْ إلى مأواكم والتمس الدليل".

١٣

إلى مأوانا المقهى عدتُ، وعلى ذات الطاولة الخشبية التي كنا نجلس عليها دومًا جلست. منتظراً وصول أي من أصدقائها تفحصت وجوه العابرين، حتى زقزقت العصافير فوق رأسي راحلة، وأسلم النهار الصيفي الطويل دفة سفينة الوقت للمساء، وجاء المغرب، وطلبت من عامل المقهى فنجان قهوة لأضبط معدل انتباهي.

- قهوة سكتتو ؟ .

سألني.

- قهوة سكتتو .

أجبت.

- شاي بالنعناع .

قال الجالس على الطاولة المجاورة.

- كشري ولا فتلة ؟.

سأله العامل .

- كشري .

أجابه .

- سكتتو مع فريسكا .

صاح العامل .

- سكتتو مع فريسكا ؟ .

سأله الآخر الواقف على النصبة .

- سكتتو مع فريسكا .

أجابه .

- ولعة .

نادى أحدهم .

- حاضر .

رد العامل .

- حجر معسل .

طلب من يجاور الأول .

- وشيشة تفاح .

ونادى آخر .

- ولعة وحجر معسل وشيشة تفاح .

قال العامل .

- ولعة وحجر معسل وشيشة تفاح .

ردد الآخر .

- القهوة السكتتو .

وجاءتني القهوة وجاء الليل بعد المغرب، وفوقي هدرت إحدى يمامات الليل فتذكرتُ هدير صديقة جيجي، ذات الابتسامة الملصوقة، بأسنان بيضاء دومًا رغم التدخين المتكرر وبشعرها المنفوش كذيل قطة فارسية مذعورة، وداعبت بإصبعي بن القهوة المتبقي في الفنجان وكتبتُ اسمها على الطاولة.

قبيل قيامي عبرت من تشبهها، دفعتُ حسابي واتبعتها .

أنهيتُ ممر المقاهي وأنا وراءها وهي أمامي، انعطفتْ يمينًا وأنا وراءها، انعطفتْ يسارًا وأنا وراءها، أسرعتْ وأنا وراءها.

تلفتّ ورفعتُ رأسي إلى الأعلى فلمحت عيونًا تراقبني، أسرعتْ هدير ولمحتُ شعرها المنكوش يتطاير فأسرعتُ خلفها، وأسرعت العيون من خلفي، تلفتتْ فأهتز شعرها المنكوش وانحيتُ ركنًا كي لا تراني فتهرب، وتلفتُّ فانحتْ العيون ركنًا كي لا أراها فأهرب.

بشعرها المنفوش كصوف خراف هائجة وصلت الميدان، لحقتها ومددت يدي لأمسك ذراعها من الخلف فالتفتت ورأتني وجرت، جريت خلفها ونظرت بطرف عيني فرأيت العيون تجري وراءنا.

انعطفتْ في مدخل عمارة فانعطفتُ خلفها، وفي بئر السلم أمام مدخل المصعد أمسكتها من كتفيها وصرخت في وجهها.

- إنتي بتجري مني ليه ؟ .

فلم تجبني .

- ردي علي، عمالة تهربي مني ليه .

وعلا صياحي وهي على صمتها .

- جيجي فين ؟ وديتيها فين ؟ .

وهززتها هزًا فاختفتْ من بين يديّ، وبقيت مرآة المصعد .

درت يمينًا في المدخل ودرت يسارًا في المدخل وتلفتت حولي فلم أجدها، والتفتُّ خلفي فلمحت طيف العيون تبتسم وتختبئ مني وتبتعد .

خرجتُ من الباب، وجريتُ خلف العيون فجرتْ، عبرتْ العيون الإشارة فعبرتُ خلفها،دخلتْ شارعًا جانبيًا فدخلته، انعطفتْ في ممر فانعطفتُ خلفها .

على طرف الممر فقدت الأثر، واختبأتْ العيون أعلى أعمدة الإنارة على جانبيّ الطريق.

أثناء عودتي إلى منزلي في آخر الليل التقيتها جميعًا، تحلقت حولي ودارت، واتسعت إحداها واحتوتني ثم ضاقت عليّ حتى أخفت كل الأشياء من حولي، وحين أخرجتني تذكرت عنوان منزل جيجي الذي كنت قد نسيته.

١٤

بعدما تحريتُ مغادرة البواب للبوابة عند صلاة العشاء، دخلتُ مسكنها.

عبرتُ الباب الحديدي المشغول الكبير، وتوجهت إلى المصعد الأول الواقع وسط بئر السلم المستطيل، المصعد معطل، وخلفي مصعدٌ آخرٌ في بئر سلم الخدم، معطل.

لم يبق أمامي سوى صعود السلم، وعندي رعب أبدي من السلالم، وبخاصة السلالم الملتفة حول نفسها مثل هذا السلم القديم.

في قريتي كان السلم بسيطًا والمنزل أبسط، من طابقين بعد الطابق الأرضي، بطوبٍ أحمرٍ، وفي مسكني الحالي السلم بسيطًا أيضًا، ميلٌ لأعلى ثم ميلٌ آخر ولا أكثر.

في مسكنها كان السلم ملغزًا، للوهلة الأولى حسبته حبلا ملتفًا بصورة مستطيلة حول بئره الواقع فيه المصعد، والسلم محيط بكل أركان المبنى، رأيته من الباب فتذكرت المشهد الخالد لسلم السجن في أفلام السينما المصرية القديمة.

لأكمل صعودي عليّ أن أدور في ثلاثة أركان المبنى لأجد الميل الصاعد، وفي كل ركنٍ شقتان، ودرجات السلم مائلة كالعادة القديمة بميلٍ ممتدٍ إلى الأمام قليلاً، وبينما أصعد تظلّني درجات الطابق الأعلى، ويصبح بئر السلم عن يساري دومًا بينما أصعد، وعن يميني دومًا بينما أهبط.

في الليلة التي بتناها هنا لم أر رقم الطابق الذي ضغطت جيجي زره في المصعد، ولم أعد الطوابق التي كانت ظاهرة من جوانب المصعد الزجاجية، بمجرد دخولنا التحمنا، أنا وهي، في قبلة طويلة ضغطتْ خلالها زر المصعد، لكني أذكر أن زمن القبلة يقارب صعودًا إلى الطابق الثالث أو الرابع.

بنجاح أنهيت درجات الطابق الأرضي لأبدأ رحلة صعودي، ودار بخاطري كابوسي المتكرر عن درج أصعده فينتهي قبل وصولي، وأحاول النزول فيسد في وجهي.

وصلت أول درجات الدور الأول، وفي كل دور ست شقق لكل شقة باب قديم وفي كل ركن من أركان بئر السلم شقتين، وفي الضلع الرابع الدرجات المائلة للسلم بجانبها شباك مطل على الشارع.

في الضلع الأول للطابق الأول عيادتا طبيبين، أحدهما لأمراض الذكور والآخر لأمراض النساء، حفظت اسم طبيب أمراض الذكورة كي ألقيه في وجه البواب إذا عاد من الصلاة قبل انتهاء مهمتي، وفي الضلع الثاني مكتبان حكوميان مغلقان دومًا كما يبدو عليهما، وفي الضلع الثالث شقة بابها مغلق بقفل خارجي كبير، والأخرى بابها قديم مُتَرب.

حين وصلت إلى أول درجات الطابق الثاني وبدأت صعودي سمعت صوتًا آتيًا من الخارج، كان الإمام قد كبر ثم صمت عن قراءته فأدركت أنها الركعة الثالثة، وفي الضلع الأول من الطابق الثاني عيادتا طبيبين لم أحفظ أسماءهما، كانت العيادتان مغلقتين، وفي الضلع الثاني من الطابق الثاني شقة يبدو على بابها فخامة متأصلة، وقفت أمامها أتأمل الزجاج الملون أعلى حديد الباب المشغول، وأطلتُ في وقفتي حتى سمعت

صوت إدارة المقبض من الداخل، فابتعدتُ، ودرت الضلع الثالث من الطابق الثاني سريعًا دون أن أدقق النظر في بابي شقتيه، ولمحت سيدة تطل من الباب الذي كنت أقف أمامه.

وصلتُ أول درجات الطابق الثالث، وسمعت سلام الإمام من صلاة العشاء، عند الطابق الثالث كان عليّ التأني في فحص الأبواب، والإسراع كي لا يلحقني البواب.

لما جئنا هنا قبلاً عبرنا من باب المصعد سريعًا، ولم ألمح من باب شقتها سوى حديده المشغول.

في الطابق الثالث تتشابه الأبواب، فكرتُ في المفتاح الذي أحمله، أخرجته من جيبي وحدقت فيه، كانت الفتحة الوحيدة التي تتطابق معه فتحة باب زويلة.

في الضلع الأول من الطابق الثالث شقتان بنفس الباب بنفس الرسم، أحداهما بلوحة عليها اسم صاحبها، استبعدتها، أذكر أن شقة جيجي مؤجرة ولا تحمل لوحة من أي نوع، الباب الثاني يظهر ضوءًا خافتًا وحديده المشغول يشبه الحديد المشغول على باب جيجي، وقفت أمامه أفكر في طريقة للدخول، للمرة الأولى أصبحت مطالبًا بتأليف سيناريو أنفذه، أنا الذي نفذت دومًا سيناريوهات لا أدري كيف أقع فيها.

ربما مشهد واحد أؤلفه في هذا السيناريو الكبير الذي لم أختره يكون كافيًا للتعويض.

ذات يوم قال لي من لا أذكره عن صاحب قصة مشابهة " هو الذي اختار السيناريو المفروض عليه، كان عليه رفض دخول اللعبة من الأساس ".

صوت سيدة الطابق الثاني وهي تنادي البواب الذي وصل لتوه، قطع استرسال أفكاري، لو وصل عندها وأطل سيصير ظهري مكشوفًا له، فالضلع الأول من الطابق الثالث مكشوفًا للضلع الثاني من الطابق الثاني، كذلك الضلع الثالث من الطابق الثالث مكشوفًا للضلع الثاني من الطابق الثاني، والحل الوحيد للاختفاء عن ناظريه هو الوقوف فوقه مباشرة، في الضلع الثاني من الطابق الثالث.

(هكذا توصلت لمعادلة جديدة تعينني على صعود السلالم المستطيلة كهذا السلم، فالضلع الأول في أي طابق يكشف الضلع الثاني والضلع الثالث من أي طابق، والضلع الثاني في أي طابق يكشف الضلع الثالث والضلع الأول من أي طابق، والضلع الثالث في أي طابق يكشف الضلع الأول والضلع الثاني من أي طابق، بينما يكشف الضلع الرابع حيث يقع السلم كل الأضلاع الثلاثة الأخرى من أي طابق، " لكي تكتشف الأشياء اخلف ما بين الأضلاع، ولتحتجب عن الرؤية طابقها "، نصيحة جيدة سأتذكرها دومًا عند صعودي السلالم الملتفة حول نفسها).

فوقه مباشرة وفوقها وقفتُ في الضلع الثاني من الطابق الثالث، وتذكرت أن هذا الضلع الواقع فيه المصعد الثاني بين شقتيه هو أول ضلع يواجه النازل من المصعد، وأننا في المرة السابقة انعطفنا إلى اليسار أنا وجيجي، وجذب نظري تصميم الباب الثاني للشقة الثانية في الضلع الثاني من الطابق الثالث وفكرتُ في رن الجرس، رفعت يدي فانفتح الباب، ورأيتها.

كان الضوء يأتي من خلفها قويًا فلم أتبين وجهها ولم أر سوى المخطط العام لجسدها الممشوق، وشعرها الطويل ورقبتها الطويلة، ابتعدت إلى الخلف قليلاً لأتبين ملامحها.

عيناها مستديرتان باتساع، بلونٍ عابرٍ بين الأزرق والرمادي، وبشرتها بيضاءً مشوبةً بحمرة وردية وشعرها أسود داكن، وجسدها بض نضر، يغطي شعرها الطويل كتفها الأيسر ويغطي كتفها الأيمن شال خفيف ملون، تحته سوتيان مشجر أسفله بطن مشدودة مستوية تنحني بشهوانية قرب العانة، وخصرها ضيق يضم في ثنية ذراع، ويلف أسفلها جيبة قماشية خفيفة مفتوح جانبها.

داخل عينيّ نظرت وسألتني:

- اتأخرت ليه ؟.

فبهتُّ.

- دا أنا مستنياك من بدري .

وغمزت بعينها اليسرى وأمسكت يدي وجذبتني إلى الداخل.

عبرنا ممرً طويلً تنفتح عليه أربعة أبواب لأربعة حجرات تقع كلها على يسار الداخل، وبين كل بابين على يسار الداخل يقع باب آخر على يمين الداخل، تلك سبعة كاملة .

بين الباب الأول والباب الثاني على يساري، أوقفتني ودفعتني على الحائط ونظرت في عينيّ بشهوانية ووضعت كفها على قضيبي.

- أنا كنت عايز أسأل.

ولم تسمح لي بإكمال حديثي، عضت لساني ومصته ثم قالت :

- أنا عارفة، أنا عارفة، بس لما ترتاح الأول .

وجذبتني من يدي وأنا لا أدري أي باب ستدفعني لندخله، وعلى مدخل الباب الثالث توقفت وهي ممسكة بيدي فتوقفتُ معها، وانثنتْ لتفتح الباب وهي ممسكة يدي بيدها الأخرى، لكنها اندفعتْ للخلف بمؤخرتها، ودفعتني فالتصقتُ بالحائط المواجه للباب الثالث، أخذت تحك مؤخرتها في قضيبي بغنجٍ أفقدني انتباهي.

أنهتْ احتكاكها واعتدلتْ قابضة على يدي، كان عرقي قد أغرق جسدي، والتصق التي شيرت القطني الخفيف على صدري، وقارب انتصابي على تمزيق سحَّاب بنطالي الجينز.

عند الباب الرابع التفتتْ وأمسكتني بكلتي يديها ودفعتني على الجدار المقابل للباب، وفكت سحَّاب بنطالي وأطلقت قضيبي في الهواء وضغطته بين كفيها بالطول، وهي تحك أظافرها الطويلة في عانتي وتلحس صدري بشدة، وتعض شعره الخفيف وتمزقه بأسنانها، فاستسلمت للخدر اللذيذ وأغمضت عينيّ للحظة.

ابتعدتْ إلى الخلف وجذبتني، وكنا قد أنهينا الممر فخشيت أن تعيد الكرة على الأبواب الثلاثة الباقية على الحائط الأخر، لو فعلتها لاحترقتُ.

قبل أن أسألها " إلى أين ؟ "، فتحت باباً في آخر الممر لم ألحظه من قبل.

أدخلتني، أضاءت الأنوار وأجلستني، ووقفت في منتصف الصالة ترقص على أنغام المقدمة الموسيقية لأغنية " يا مسهرني ".

بدأت في خلع ملابسها، وكان قضيبي خارج بنطالي ولساني خارج فمي وأنا ألهث .

من على كتفها الأيمن خلعت شالها ولفته على رقبتها ثم ألقته على وجهي، ولفت، ثم خلعت الجيبة القماشية الملفوفة على أوراكها فبان تحتها كيلوتٌ صغير جداً مشجر،

أدخلت الجيبة داخله ومررتها بين فخذيها وهي ترقص وتلف، وولتني ظهرها وأمسكت الجيبة مراوحة إياها على مقعدتها ثم ألقتها على حجري.

خلعت سوتيانها الخفيف بإسقاط حمالتيه، اليمنى ثم اليسرى، وأمسكته على صدرها فبانت حلمتاها منتصبتان ولحمها في الضوء الأبيض لامع بوردية، اقتربتْ مني وألقت السوتيان على فمي.

على حجري جلست عند انتهاء المقدمة الموسيقية، رفعت قضيبي وأدخلته في كلوتها مثنياً إلى الخلف، وضغطت بجسدها ضغطًا شديدًا عليّ وظلت تهتز وهي تنزع عني تي شيرتي.

أمسكت فخذيها فدفعت يديّ ثم استلقتْ على الأرض ورفعت ساقيها وضمت قدميها على قضيبي وظلت تدعكه بباطنيهما، ثم انتصبت واقفة وضمته بين ركبتيها، ضممتها مرة أخرى فأبعدتني برفق هامسة " لما ترتاح الأول ".

أمامي جثت على ركبتيها، ووضعت قضيبي في فمها وهي تبلله بلسانها وتخرجه من فمها لتمسحه بشعرها وتعود لتضعه في فمها وتعضه من منبته بشدة، ثم أطلقته ووضعته بين ثدييها ودلكته حتى قذفت.

مسحت قضيبي بشعرها وقبلتني ثم قالت " استنى شوية وهرجعلك "، كانت أم كلثوم قد أنهتْ غناءها.

لا أدري هل نعست لحظات أم ساعات، وكنت كثيرًا ما أنعس بعد القذف .

أفقت فوجدت نفسي بكامل ملابسي، والحجرة مظلمة إلا من ضوءٍ يتسلل من النافذة، تمطعتُ، وحين هززت قدميّ لم تتحركا، مرة أخرى هززتهما فلم تتحركا، تحسستهما، كانتا مقيدتان بالجيبة التي كانت ترتديها، ففككت الجيبة فوجدت قيدًا جلديًا على كل ساقٍ، شددت القيدين ولدهشتي انفلتا.

انتفضت ناحية الباب المغلق ووجدت المفتاح داخله من ناحيتي، لففته فلم يدر، أدرت المقبض فلم يفتح.

خلفي نافذة نظرت منها فإذا الليل قد أضوى المدينة كلها، والقفز مستحيل .

اندفعتُ نحو الباب وركلته على طريقة شاك نوريس فانفتح.

جريت الممر الطويل وأنا أحاول فتح الأبواب المغلقة بحثًا عنها، فتحت باب الشقة الذي لم يكن مغلقًا وخرجتُ.

أسرعت أنزل السلم، وفي كل طابق كان عليّ أن أدور كل الأضلاع مرة أخرى .

في الطابق الثاني سمعتُ صوت المصعد فارتكنت في ظل ميل درجات الدرج كي لا يراني الصاعد عبر جدران المصعد الزجاجية .

حين وصلت إلى مدخل المبنى وجدتُ على بابه الحديدي سلسلة حديدية غليظة تنتهي بقفل من الخارج .

مددت يدي لأقلب السلسلة الحديدية وأحاول فتح القفل، حركت الحلقة الأولى فاحتكت بالباب بصرير مُصّم، وحركت الثانية بهدوء أكثر، فجاء الصوت الثاني أقل من الصوت الأول .

اثنتا عشرة حلقة بقيت، كان عليّ أن أضبط إيقاع تحريكها لكي لا أوقظ البواب النائم في الحجرة الخشبية الموجودة في آخر الممر الواقع في ظل بئر السلم بعد المصعدين المتقابلين.

حركت الحلقة الأولى والثانية والثالثة وتنفستُ ببطءٍ فارتخت السلسلة وخبط القفل بعنفٍ على الباب الحديدي من الخارج، وفزعت قطةٌ كانت نائمة.

التفت خلفي بسرعة لأتأكد أن البواب لم يسمع الخبط فاهتزت الحلقات واحتكت في الباب بصوت مرة أخرى.

عميقًا تنفست لأضبط إيقاع أناملي، وحركت الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، وأمسكت الحلقات بيدي اليسرى ومددت اليمنى لأمسح العرق عن جبهتي .

سمعت صوت سيارة تقترب فرجفتُ واهتزت الحلقات مرة أخرى في يدي، وانفلتت من يدي اليسرى المعروقة حلقتان، عادتا إلى الخلف.

مرة أخرى جذبت السادسة والسابعة دون أن أهتم بإيقاع التحريك ومساحة الصوت، ثم جذبت الثامنة والتاسعة والعاشرة، وسمعت صوت نفير السيارة فرجفت الرجفة الثانية، وسرت الرجفة من قلبي إلى ذراعي إلى يديّ إلى السلسلة الحديدية إلى القفل الحديدي نخبط على الباب.

سمعتُ من حجرة البواب خلفي همهمة مستيقظ، فأسرعت في جذب الحلقتين الحادية عشرة والثانية عشرة، ووصلت إلى القفل.

وأصابعي تهتز جذبت لسانه إلى الأعلى فلم يُجذب، حاولت فلم يُجذب، جذبت فلم يُجذب، رميته من يدي فرزع على الباب وبان في الضوء الداخل من الخارج أن لسانه لم يكن منطبقًا.

فتحتُ الباب وخرجتُ إلى الشارع أجري ومن خلفي أصوات أقدام تجري، أسرعتُ فأسرعتْ، انعطفتُ يمينًا ودخلت في مدخل حديقة لقيته في طريقي.

تواريتُ في مدخل الحديقة ونظرت خلفي فلم أر أحدًا يتبعني، فتنفست الصعداء .

على الرصيف الصغير لحوضٍ من حوضي النجيل الموجودين على جانبي المدخل، جلستُ، ومددت ساقي إلى الحوضِ الآخر، وسمعت آذان الفجر من أحد المساجد القريبة.

استعدتُ هدوئي ونهضتُ لأمضي، فلمحت بطرف عينيّ طيفًا يُلَوِح لي .

نظرت فإذا بالشيخ الذي أيقظني على رصيف الفيلاّ يشير لي من الطرف الآخر أن أَتَبِعه.

للحديقة بابان أحدهما الذي دخلت منه والآخر على الطرف الذي أشار منه الشيخ، وللحديقة سور يحيط بها، حول أحواضٍ صغيرةٍ تلتف حول حوضٍ كبيرٍ وتصنع فيما بينها ممرات صغيرة .

على جانبي باب الحديقة حوضان يصنعان فيما بينهما ممر الدخول الذي أقف فيه يواجهني حوضُ كبيرٌ، مزروع حوله ريحان وشجر قصير يصنع سورًا نباتيًا له، وداخله نجيل ممزقٌ بعضه، وداخل النجيل حوض مزروع فيه نرجس وبنفسج وورد بلدي وياسمين أتتني رائحته حين وصلت سور الحوض، وانعطفتُ يمينًا لأدور حوله لأصبح عند الطرف الآخر من الحديقة .

سرت قليلاً في الممر الذي يصنعه الحوض الكبير والحوض الموجود على يمين الباب، وعن يساري وجدت ممراً أخر دخلت فيه لأدور حول الحوض الكبير، وعن يميني حوضان صغيران يصنعان فيما بينهما ممرًا يؤدي إلى الممر المحاذي للسور، المحيط بالحديقة بين أحواضها والسور الخارجي.

أنهيت الممر ووجدت أمامي حوضًا آخرًا يصنع مع الحوض الكبير ممرًا انعطفتُ فيه إلى يسارًا لأكمل دورتي وأصل إلى الطيف الذي يلوح لي.

انعطفتُ يسارًا ولم أصل، كانت الحديقة مبنية بطريقة غير متماثلة على عكس ما توقعت، سرت في ممر بين حوضين من النجيل، والحوض عن يميني زهوره ذابلة والحوض عن يساري زهوره ذابلة، وأمامي حوضٌ أصغرٌ زهوره ناضرة ناضرة، وصلتُ الحوضَ الأصغر وأقام المؤذن صلاة الفجر، ولم أجد الشيخ الذي يناديني، وجدت ثلاثة أحواض يحدون الحديقة، ولم أجد الباب الذي توقعته، للحديقة باب وحيد هو الذي دخلت منه، سأعود إليه مرة أخرى لعلي آتٍ منه بخبر أو واجد عنده هدى.

للمرة الأولى كان الطريق واضحًا، وأمامي ممر طويل يحده عن يساره أحد الحوضين الذيّن مررت بهما قبلاً ويصل حتى الممر المحاذي للسور.

وصلت الممر المحاذي للسور وسرت فيه جاعلاً السور عن يميني والحوض السابق عن يساري، وحين وصلت عند طرفه رأيتُ ما رأيت.

كان جالسًا على طرف أحد الأحواض الصغيرة من الداخل ومن خلفه الضوء يظهر ظل حركته دون تفاصيل، ورأسه نابتًا على مرفق ذراعه الأيمن، يعلو به في الضوء ويهبط، ويفرد ذراعه الأيمن ليُسلم رأسه لذراعه الأيسر، ويثني ذراعه الأيسر فينبت رأسه على مرفقه الأيسر، ويعلو به في الضوء ويهبط.

رجفت الأولى وتوقفت فأعاد هو الفعل، اقتربتُ بعدما رجفت الثانية وتمتمت على طريقة ماري منيب "بسم الله الرحمن الرحيم"، فأعاد الفعل، فاقتربتُ على حذر وتبينت.

منثنيًا على ركبتيه في ثيابه الرثة يهرش في جسده الأجرب بإحدى يديه وبالأخرى في شعره الأشعث.

درت في الممر الذي خلفه وعن يساري الحوض الكبير الذي يتوسط الحديقة وعن يميني حوضه، سرت حتى ظهر عند انتهاء سور حوضه ممر جديد بين حوضين يتعامد عليه ممر آخر.

دخلت الممر وخطوت فيه حتى رأس الممر الذي يقاطعه، دخلت فيه وعن يميني حوضان صغيران يوازيان سور الحديقة وعن يساري حوض أكبر منهما، وصلت نهاية الممر فوجدت نفسي عند الحوض الذي كنت أجلس فيه بجوار الباب، كانت تباشير الصبح قد أبشرت.

خرجت من الحديقة واتجهتُ إلى منزلي .

وفي الأيام التالية انشغلتُ بعملي الجديد الذي حصلت عليه بمعونة صديق، وبعد بضع ليال جاءني الهاتف .

١٥

حينما استيقظت كان هاتفي يرن، كان أحدهم يحاول الاتصال بي لكني لم ألحق به فأغلق الخط بعدما يأس، وحين نظرت إلى الهاتف لم يظهر الرقم على شاشته.

وفي الليلة التالية عاود الهاتف الرنين في آخر ساعات الليل، بينما كنت أستغرق في أشد أحلامي غرابة، لا صوت يأتيني سوى صوت الشخير العالي للصديق الجديد، شريكي في العمل والشقة.

يداي سبقتا عينيّ اللتين لم تلحقا الرقم السابق، على أذني وضعت الهاتف فجاءني الصوت عميقًا مصحوبًا بذبذبات أرجعتها للشبكة .

- وحدي أعرف مكان البحث، وحدي أعرف مكانها .

سمعته وأجبت بدهشة

- نعم ؟! .

فرد :

- لا تسأل وأنت تعلم، فلا سؤال لعارف .

وانقطع الصوت، ونظرت إلى الهاتف فأغلق روحه .

وفي الليلة الثانية تكرر الوقت وتكرر الصوت، زاد عمقه وزادت مساحة الذبذبة الصوتية.

- وحدي أعرف مكان من لا يعرف الآخرون مكانهم .

- قصدك مين ؟ .

- بوشم العنقاء وعينيّ البنفسج وحروف تعرفها وتعرفك .

وأغلق السماعة وظهر رقم ما على شاشة الهاتف، ضغطت لحفظه فاختفى .

وراجعت كلامه، من غيري يعرف بحثي عنها، ومن يدرك غيري قصة وشمها، واستغرقني التفكير حتى عاودني الصوت في الليلة الثالثة .

- ولما تيئس وأنت لم تبحث بعد .
- أنا دورت لما هلكت .
- فاسكن إلى نفسك إذًا، حتى تجد نور الطريق .

وتركني ثلاث ليال لم أحدث فيها أحد عما أسمعه، وبكيت خلالهم حتى أذاب دمعي خدي فعاودني الهاتف .

- لما سكنت بحثت، نخرج من باطنك النور .
- دلني أرجوك .
- حين تعود إلى لجة الجنان المتداخلة، اترك ثلاثة دروب تجدني بعدها أدلك .

واندفعت قائمًا من على سريري، وخرجت من منزلي عائدًا إلى متاهة الحديقة، وطردت من ذهني كل الوساوس عن صاحب الصوت، وعندما تركت الدرب الثالث بعد الحديقة، هاتفني .

- ها أنت قد وصلت وحدك، وها أنا أراك عندي .

فأغلقت الهاتف وتلفتّ حولي أبحث عنه فقال لي :

- لو بحثت عني سأضلك، ولو تلفتّ لن أدلك .

فامتثلت وتوقفت عن التلفت فأكمل حديثه

- سر في اتجاهك وحين يُظلم الطريق عليك أبحث عن أقدم بيت بجوار مدرسة قديمة عليها نقش أنت ذاكره، وعندما تجد البيت أبحث عن صليب البوابة وأصعد.

وانتهى بي الطريق وأظلم عليّ، وأمام المدرسة القديمة التي رأيت أعلى سطحها نقشًا يشبه الوشم على خاصرة جيجي، بحثت عن أقدم بيتٍ حتى وجدته .

وقفت أمام البوابة الخشبية العالية المنتهية بنصف دائرة تصنع مع خط ضلفتيها رسم الصليب.

دست على عتبة المدخل فانفتح الباب، هالني صوت صريره، كان كمن ينتظرني منذ الأزل، دخلت فعاودت ضلفته الرجوع ووقفت في منتصف الطريق فتوارب سامحًا بدخول ضوء نهاية دورة القمر، شعاع ضئيل لمحت معه ظلالاً لدرجات سلم حديدي

عملاقٍ، خطوت على أول الدرجات وما أن بدأت صعودي إلى الأعلى حتى أكمل الباب إغلاقه التام.

على جدران البيت من الداخل بعض النوافذ بحديد مشغول وزجاج أزرق أنفذ بعض الضياء، وفي ضوء ما سمحت به الظلال مشيت حتى انتهى السلم إلى ممر ضيق بين حائطين يكادان ينطبقان، في كل حائط منهما باب مغلق، وفي سقف الممر نقش لحرفي J ملتويين متشابكين، كل رأس بعقب الآخر كبيضة مستطيلة بداخلها حرف J آخر يبدو كعصا ملتوية .

وعلى الحائطين الذين يبدوان دونما نهاية حروف أخرى ظهرت كشارات مضيئة على الجدران.

تبدو الحروف المفرقة كقوس أسفلهم كلمة بخط أصغر كوتر القوس، على الحائط الأول بعد بابه المغلق حرفان متفرقان **J.J** ومن أسفلهما كلمة **Dublin**، وعلى الحائط الثاني ثلاثة حروف متفرقة **J.L.B** مكتوبة بنفس ذات الطريقة ومن أسفلهم بخط أصغر **Babel**، وفي سقف الممر جملةٌ فرنسيةٌ داخل سهم إلى الأمام ويظهر ظل حروفها على الأرض . [5] **Jeu de jours est la jeu de mots**

---

[5] الترجمة الحرفية : لعبة الأيام هي لعبة الكلمات (النكتة) .

خطوت على الحروف فاتسع الممر، وانتهت الجدران إلى باب حديدي مشغول لشقة، زجاجه أزرق .

وقفت أمامه فتوارب، ومن نافذة على جدار الممر الذي بان لما أنفتح، بدت ظلال زرقاء أبانت عن باب في آخر الممر .

دخلت من الباب ومشيت في الممر الذي يظهر على جداره نوافذ بحديد مشغول وزجاج أزرق، وعلى سقف الممر منقوش حروف J متصلة ببعضها، كل في ذيل الآخر كسلسلة تدخل إلى الداخل .

وصلت حتى الباب الداخلي الموارب ودخلت، فإذا بي داخل غرفة سوداء جدرانها سوداء مربعة مصمتة إلا من شباك صغير يطل على برج وناقوس، وفي وسط الغرفة سرير خشبي واطئ مسجي عليه ملاءة بيضاء تبدو كما لو كانت تغطي جسدًا ميتًا، للمرة الأولى دار بخاطري أن جيجي ربما تكون قتلت .

جريت إلى السرير ورفعت الملاءة فبان السرير من تحتها دونما ألواح وقاع الأرضية السوداء تحته بلا قرار، نظرت إلى الأرضية من خلاله فأحسست بقوة تبلعني إلى الداخل فابتعدت.

عن يميني ظهر باب دخلته فإذا هو ممر بقاعٍ أسودٍ صفصفٍ دون قرار، سري فيه جسدي وانتهيتُ عند جانب السرير وعاد ما بداخله يجذبني بقوة أكبر.

للمرة الثانية هربت من قوة الجذب، وعن يساري ظهر باب، دخلته، فإذا به كسابقه سريت فيه ووجدت نفسي عند السرير من الجانب الآخر، واشتدتْ قوة الجذب فهربتُ.

رجعت إلى الباب الأول الذي دخلت منه فإذا به سرداب طويل لولبي، سرت فيه صعودًا ثم سقطت ومن تحتي ظهر السرير الخاوي والأرضية السوداء وقبل أن يبتلعني دفعت نفسي فسقطت بجانبه.

حولي التفتْ ملاءة السرير البيضاء وأبيض كل شيءٍ من حولي، تبدو الأشياء بارزة، دون خطوط، بتدرجات اللون الأبيض، أشعر بها دون أن أتبينها، هذا مربع أحسست به فقفزت بداخله، تعلقت.

نازعت بيديّ لأخرج من الملاءة، وخلصت نفسي فاشتبكت قدماي في أسلاك أحد أعمدة الإنارة، والتفتْ حولي الأسلاك وتشابكت.

انثنيتُ على قدميّ أخلصهما فانضمتْ يداي على قدميّ والتحمتا وتقصبتا كالبوص، ونبت على قصبي زغب أبيض.

اصفرّ الزغب على جسدي واصفر كل شيءٍ من حولي وابتلعتني عينٌ صفراء .

سبحت داخل الضوء الأصفر حتى خرجت، ثقب جانبي الأيمن منقار طائر يحمل طعامًا لصغاره، نظرت فإذا أفراخه بداخلي وأنا حولهم كالعش .

طردت الطائر عني ولفظت طيوري من جسدي، فزال الزغب عن جسدي وصعقتني الأسلاك وسقطتُ على الأرض .

على الأسفلت الخشن هبطت، واحتضنتُ رأسي بكلتي يديّ أحميه من الركلات والأحذية الغليظة، فانكشف ظهري للركلات والأحذية، عدت إليه أحميه فانكشف رأسي، عدت إليه فانكشف ظهري، استلقيتُ عليه فانكشفتْ بطني للركلات والأحذية الغليظة، ضممت ذراعي عليها فانكشف رأسي وساقاي، واشتد الضرب فارتخى ذراعاي وانكشف كلي، حملتني أيادٍ غليظة ورفعتني عاليًا ورمتني أرضًا .

فتحت عينيّ فلم أر إلا ظلالاً ظلالاً.. ظلالاً، ظلالاً هي كل ما رأيتُ، رفعتني الأيادي الغلاظ الشداد فرأيت الضوء الداخل من النافذة الحديدية بقضيبيها الذين يقسمان الضوء ثلاثة أقسامٍ، رمتني الأيادي على الأرض وسحلتني فاصطدمت بالباب الحديدي المغلق، رفعتني الأيادي وصدمتني بالحائط فصرختُ، فأمسكتني مرة أخرى وصدمتني بالحائط فصرختُ، ومرة أخرى اصطدمتُ ومرة أخرى علا صراخي،

وصرختُ ثم صرختُ حتى ارتميتُ على الأرض والركلات تركلني والأحذية تدوس على كل جسدي.

سمعتُ صوت مزلاج الباب وغمرني ماء كالطوفان، انتفضتُ فاستقبل وجهي رذاذ السباب ورذاذ البصق .

- قوم يا ابن القحبة إنت هتموت لنا هنا .

وسحلتني الأيادي وألقت بي خارجًا .

وحين أصبحت قادرًا على الوقوف جريت إلى منزلي .

١٦

منذ زيارتي الغريبة للمنزل القديم بصحبة الهاتف الدليل لم يغمض لي جفنٌ وانتابني أرقٌ مقيمٌ، وصرت أواصل الليل بالنهار، وأواصل النهار بالليل.

في الصباح عملٌ، في المساء محاولات للاستراحة وعملٌ أضافي في بعض الأحيان، وفي الليل محاولات فاشلة لاستجداء النعاس.

مرات قليلة غشيني لمامًا، استيقظتُ بعدها فزعًا ممسكًا بين فخذيّ بعصا ملوية على شكل حرف J، سرعان ما تتلاشى كسحابةٍ دخانٍ أبيضٍ.

ذات يوم بينما كنت عائدًا من عملي عرجتُ على الصيدلية المغلقة دومًا بفعل " مغلق للصلاة "، وانتظرت الفتح حتى فتحتْ، واشتريت منومًا قويًا ابتلعته حبة بعد حبة حتى أجهزت عليه، دون فائدةٍ.

وصار الهاتف يأتيني في أي وقت بعدما اعتاد قبلاً زيارات وقت السحر، صار يأتيني دون حتى أن يرن هاتفي، يغيبني وسط الناس ويُملي عليّ ما أسمعه .

ويوم آخر عدت إلى الصيدلية واشتريتُ منومًا آخرًا، مارست عليه ذات ممارستي الأولى، دون فائدةٍ.

ويوم آخر طاردتني الطيور عند خروجي من العمل فقفزت على شجرةٍ هربًا منها فاتبعتني، فقفزت أرضًا وصعدت شجرة أخرى، وهكذا طاردتني الطيور من شجرةٍ إلى أخرى حتى عدت بيتي منهكًا، رقدت دون أملٍ في نومٍ أو حتى غفوة.

ويوم آخر طاردتني الحافلات من رصيفٍ إلى رصيفٍ وعدت إلى بيتي منهكًا، دون فائدة.

ويوم آخر طاردني الناموس والبعوض والنمل والنحل واليعاسيب والزنابير والدعاسيق والديدان والقمل والبق والصراصير، من بالوعةٍ إلى بالوعةٍ ومن ماسورةٍ إلى ماسورةٍ ومن مصرفٍ إلى مصرفٍ، وعدت إلى منزلي في عيّ لم يعياه أحد من قبل، ولم أنم .

طوال ذلك لم يقاطعني الهاتف، مرات يغيبني ومرات لا أتبين حديثه، وذات مرةٍ غيبني أثناء سيري وقال لي :

- لمَ مشيت ؟ .
- لم أقدر .

أجبته

- ولكن ليس كل سالكٍ هالك .
- كنت ملجومًا .
- ومن يمسك لجام الروح على فرس الأبد إلا عتق الجسد.
- ولكني لم أسمع بل وعيت.
- والكلمُ كلمتان، كلمةٌ تلقى إليك فتسكنك وأخرى تسمعها دون أن تحزنك .

- وبكيت .

- كذا تلقى إليك فيفيض عنك الدمع هونًا مما حملت .

- لكني لم أكشف سترًا، والله ما كشفت سترًا، هي التي كشفت سترها .

- ولكنك حملت منها فاصبر على ما حملت .

- فاحملني إليها إذًا.

وناديته مستعطفًا فأجابني قبل انقطاعه .

- أما أنا فأحمل من حَمَل ولا أحمل أبدًا من حُمِل .

وفي تلك الليالي عدت لدردشتي الليلية مع منى .

monamonmones@gmail.com 00:16

انت فين يا حازم

Hazem souli 00:16

موجود بس مش عارف فين

monamonmones@gmail.com 00:17

شهر ولا خبر

Hazem souli 00:17

هاحكي لك بعدين لما أشوفك

بس قولي لي قبلا يعني إيه

Jeu de jeux est jeu de la mort

monamonmones@gmail.com 00:18

جملة غريبة وتركيبها غريب

معناها " لعبة الألعاب هي لعبة الموت "

قريتها فين

Hazem souli 00:19

بعدين يامني

بعدين لما أقابلك

وفي نفس تلك الفترة، اختفى عادل صديق العمل ورفيقي في المسكن.

ذات صباح لم يأتِ إلى العملِ وفي المساء لم يرجع إلى المنزل، وقبل منتصف الليل وصلتني أنباء القبض عليه.



عادل

أو وأصبح حازم وغدًا

١٧

عندما هاتفني تذكرته بعد لمحة، لم نكن أصدقاءً لكني كنت أكنّ له بعضًا من مودة، ومنذ عامين قدمه لي أحد معارفنا المشتركين.

بعد لحظات قليلة ضبطت أذني على إيقاع كلماته المتسارعة المقضومة المنطوقة بخنفٍ حلقيٍ يعطي صوته بحةً ونبرًا مميزًا، ولزمته " يا خال "، كعادة أبناء جنوب المنيا.

بعد السلام والتحية عرض عليّ عملاً، أعطيته موعدًا على مقهى قريب من بيتي كنت أجلس عليه في مساءاتي، ووصلت قبله.

ما أن هبطت درجتيّ العتبة الفاصلة بين الرصيف وزحام الطريق وبين المقهى وزحام الكراسي، حتى انعطفتُ إلى الركن الداخلي للمقهى بالقرب من النصبة، بعيدًا عن الركن الخارجي الواسع المزدحم أمام التلفاز الضخم المشغل دومًا على قنوات الأفلام والأغاني ومباريات كرة القدم.

دنوتُ من طاولتي الخشبية المفضلة تحت العمود الثاني من جهة النصبة برخامه القديم المصفر وطلائه الأخضر المقشر، وما أن رآني العامل حتى نادى زميله الآخر قائلاً " سكتتو محروق عثمانلي "، فأنا كنت زبون مستديم.

جلستُ أتأمل الشباك الحديدي خلف النصبة، بقضبانه الثلاثة والشفاطين على جانبه، الطاردين للهواء الساخن إلى الخلف حيث الحمّام وموقد الفحم، وعلى الحائط الجانبي المدهون بالأخضر والأصفر الفاتح، التلفاز الموضوع في الركن الداخلي لعرض الأخبار وقنوات الحوار الفضائية، كان مغلقًا.

صب العاملُ الماء على بن قهوتي المحوج بعدما وضعه في قعر الكنكة وقلبه على النار قليلاً، بعد مراتٍ قليلةٍ من ترددي على المكان صرت مميزًا بتلك القهوة ببنها المحروق المحوج، أدخل فتأتيني على صينية معدنية في فنجانٍ خزفيٍ بودن عيرة وبجوارها كوبُ ماءٍ مشبرةً جدرانه بقطرات متكثفة.

وضع العامل الكنكة على التراب المكمور فوق النار المشتعلة من تحت النصبة، وتناول كنكة أخرى ووضعها بعيدًا عن الرمل قليلاً ووضع فيها بعض الحلبة وتركها تغلي، وتناول أخرى ووضع فيها بعض القرفة، ومن صنبور المواسير المعدنية الملتفة لتعمل كغلاية للماءِ صب الماءَ المغليَ على كوبين في قعرهما بعض الشاي الناشف.

وأنا أمام كل ذلك جالسًا كالعادة، تأتيني الروائح المختلفة للبن والنعناع والقرفة، وسريعًا كالعادة تأتيني القهوة، وسريعًا كالعادة أشربها، ومن جيبي أخرج سيجارةً أغمس مبسمها الفلين في تفلة البن المتبقي في قعر الفنجان ثم أشعلها.

وأنا كنت جائعًا، رميت ببصري عبر الباب الزجاجي المدهون حديده بالأخضر والمكون من أربع ضلف، اثنتين مفتوحتين في المنتصف واثنتين مغلقتين عن كل طرفٍ، وأعلى الباب شباكٌ مقسمٌ إلى ثلاثة، ثلثٍ كبيرٍ مغلقٍ فوق الضلفتين في

المنتصف وثلثين مفتوحين فوق الضلفتين المغلقتين عند كل طرف، وبحثتُ عن العم حفني.

كانت دراجته التي يستعملها كمعملٍ متنقلٍ لعمل السندوتشات موجودة، وكان الصندوق الخشبي المربع الموضوع خلف مقعدها مغلقًا، وكان العم حفني مختفيًا، رجال البلدية مروا من هنا.

منتظرًا عادل أو العم حفني أيهما أسرع في الوصول، أشعلت سيجارة، وفي نفس الوقت حضرا.

جاء عادل ودخلت معه روائح الثوم والبصل والطماطم المطرنشة طرنشاتٍ مقطعةً والفلفل الأخضر والفلفل الأحمر والفلفل الأسود والملح والكمون والشطة الناعمة والدهن واللية وبعض التوابل الأخرى، وكان العم حفني قد فتح الصندوق الخشبي وأخرج كل العدة وأشعل موقد الكيروسين الصغير ووضع عليه الطاسة وألقى بداخله خميرة الطبخ وبقايا كبدة الأمس، وإلى داخل المقهى أرسل ولده الصغير يتلقى طلبات زبائن المساء، طلبت طلبي المعتاد من كبدة وسجق وسلطة وقشطة بالعسل تأتيني بعدهم، وطلبت لعادل مثلهم.

أكلنا وأشعلت لنفسي سيجارة وناولت عادل سيجارة وطلبنا شايًا بنعناعٍ أخضر.

قال لي أن المستشفى التي يعمل بها في قسم الاستقبال تحتاج إلى مدخل بيانات في قسم الحسابات، وأنه رشحني لهذا العمل وحصل لي على موعدٍ في الصباح التالي مع مدير الحسابات.

من خلف مروحة السقف الدائرة دوائرًا دوائرًا لا تجلب سوى الصداع، سقط على وجهه ضوء لمبات النيون منكسرًا، فانعكس على ابتسامة أسنانه الصفراء وعينيه الضيقتين السوداوين، ووجهه المربع بجبهته العريضة ووجنتيه البارزتين وتفاحة آدم في عنقه البرونزي الغليظ.

قرب انتهاء جلستنا أصبح أمامي واقفًا يتلكأ، أجلسته مرةً أخرى وسألته عن سكنه فأجابني بأن قريبه الساكن معه في البلد حاليًا، وأنّ صاحب البيت يطالبهم منذ فترة بزيادة في الإيجار، عرضت عليه أن يبيت معي الليلة لنتوجه في الصباح سويًا إلى العمل فوافق بعد تردد.

وفي المنزل بينما كان عادل على كنبة الصالة غارقًا في جلبابي البلدي بقامته التي تقصر عن قامتي، وبينما كنت أقف أمام نار البوتاجاز وفي يدي كنكتي، مكسورة اليد الخشبية أمسكها من ذراعها المصنوع من سلكٍ حديديٍ ملفوف حول عنقها الضيق، وبعد أن أنهيتَ حرق البن المحوج وقبل أن أصب الماء فوقه صبًا، رفعتُ صوتي ليعبر

الممر الصغير الواصل بين صالتي ومطبخي، وعرضت على عادل أن يسكن بصحبتي، فسكت قليلاً ثم قال : " هافكر " .

وفي أول السحر، وأنا مستلقٍ على ظهري أنظر كعادتي من شباك غرفتي ذي الشيش الخشبي المكسور بعض أضلاعه، كلمت كعادتي ناقوس برج الكنيسة العالي المدهون بالأصفر ومخطط بخطوطٍ حمراءٍ باهتةٍ، وللمرة الأولى منذ بدء مخاطباتي له، رد عليّ .

قال لي أنه يسمعني دومًا ويسجل أحاديثي التي أمليها عليه وإن كان لا يرد، وقال أنّ عادل سيسكن معي وأنّ ذلك أفضل، للمشابهة التي بيننا، وأننا الآن ككتلتين متزنتين في كفتي ميزان، وحين سألته هل سيبقى عادلٌ معي عاد لصمته .

في تلك الأيام القليلة بين تيه البحث وتيه الهاتف كنت لازلت قادرًا على أن أخطف بعض الساعات نومًا .

١٨

في الصباح خرجنا من منزلي سويًا، كانت ورديته تبدأ في السابعة، وكان موعدي مع مدير الحسابات في التاسعة .

عندما نزلنا من الميكروباص قرب المستشفي قال لي أنه وافق، بعد تفكير مضنٍ، على أن يسكن معي، وأنه سيذهب بعد انتهاء ورديته لإحضار متاعه من مسكنه القديم .

ونحن نتناول الفطور على عربة الفول أمام المستشفى ناولته مفتاحًا آخرًا للشقة .

في الأيام القليلة التي عملتها عاد لحياتي بعض انتظام سرعان ما أختل بالكلية، وفي تلك الأيام عدت أفكر في رغبتي الأبدية في صنع سيناريوهات أؤلفها أنا وينفذها غيري؛ حتى عادل لم ينج من براثني.

ذات يومٍ التفت إليّ وقال :

- حازم .

فأجبت

- أيوة .

- هو الواحد يروح من هنا إزاي.

- هو أنت لسه ما حفظتش السكة ؟ .

سألته

- لأ لسه .

أجابني والتصق بجانبي، ونحن مستنديّن على الحائط السيراميكي البارد في بدروم المستشفى، استراحتنا للتدخين دون مراقبة .

- أومال كنت بتروح وتيجي إزاي ؟

سألته وأخرجتُ الدخان من منخريّ وفمي ونفخت في حلقاته .

- أبدًا كنت باركب لحد البيت القديم ومن هناك أتصرف .

أجابني فمنعتُ نفسي من الضحك، كانت المسافة من هنا حتى بيته القديم ضعف المسافة من بيته القديم حتي شقتي، أعجبتني فكرة قطعه للطريق مضروبًا في ثلاثة فقلت له :

- بص يا عادل إنت تركب من الموقف أي حاجة رايحة الكوبري، عارفه ؟ .

هز رأسه وهمهم بالإيجاب .

- تنزل عند أول الكوبري وتسأل على بتاع العصير .

- أنهي واحد؟.

وأثارني اهتمامه فدفعني للاستزادة

- جنة الفواكه يا أخي اللي ع الناصية.

وهز رأسه كمن يحاول الفهم ويحاول إيهام محدثه بفهمه في الوقت ذاته .

- من هناك تكسر يمين في شمال في تاني شمال هتلاقي نفسك في البيت .

وكنت أسكن قبل ذلك بكثير، عاودتُ النظر إليه فتوهمت أني لمحتُ في عينيه حازم المبتسم فتجهمتُ، فلمحتُ في عينيه حازم المتجهم، وخفت من صعود ارتباك طفيف إلى عينيّ مصحوبًا بنشوة انتصار على ذكائه تثير شكوكه في قولي فأخفضت بصري، وكثيرًا ما كنت أفشل في الحفاظِ على الحد الفاصل بين التجهم وبين النظرة الطبيعية، والبقاء بذات القناع الحقيقي الذي ألقى به كل الناس طوال الوقت دون كسرٍ، كي لا يدرك محدثي كذب قولي.

في تلك اللحظة أنهيتُ سيجارتي، واستدرتُ صاعدًا إلى مكتبي وأنا أؤكد عليه ضرورة حفظه لطريق العودة.

وفي المساء بعد انتهاء العمل وانتهاء جلستي الطويلة على المقهى بصحبة فناجينٍ من القهوة، تساءلتُ حول ما فعلته مع عادل وهل كان ذلك إضلالاً تامًا أم لم يكن، وكيف يكون إضلالاً تامًا وأنا لم أسلب منه عقله الكامل الذي لازال بإمكانه تمحيص كل الأمور واختبارها، وأنا لم أفعل شيئًا، تالله لم أفعل شيئًا، سوى أني رميت البذرة

وتركتها تنمو دون حتى أن أغلق الأبواب في وجه الاحتمالات الأخرى، فأنا لا أملك التحكم في كلِ مجريات الأمور، ولا أملك سوى بدءِ اللعبة .

في كلِ السيناريوهات الأخرى التي بدأتها كنت أبدأ من نقطة ما وأشتبك معها في النقاط التي أعرفها، وكنت لا أدرك شيئًا من سير الأحداث غير تلك النقاط التي تصل إلى علمي، أبدأ اللعبة وانتظر نتائجها ومفاجآتها وكل استمتاعي في ذلك هو الإحساس بأني أدخل الآخرين في التجربة، واستمتاعي بلذة المقامرة والرهان على النتائج المنتظرة .

(يروي خورخي لويس بورخيس في قصته يانصيب في بابل[6] أن الحكماء عندما أدركوا أن "اليانصيب تكثيفًا للمصادفة، وحقنًا دوريًا للكون بالفوضى "، قرروا جعل احتمالات اليانصيب لا نهائية لجلب متعة لا نهائية بحيث أصبحت بابل في النهاية " لعبة لا نهائية للمصادفة ") .

ومنذ فترة ينتابني تساؤلٌ لا أجد له إجابة حول مدى أحقيتي في إنهاء سيناريو وضعته دون أن أملك مجريات أموره كلها، فماذا لو انقلب ضدي، وماذا لو كان كل ما أفعله هو مجرد سيناريو وضعه مؤلف مجهول لا أعرفه، وأنه هو الآخر ينفذ سيناريو من صنع

[6] ترجمة خليل كلفت .

مؤلف آخر، وذلك الآخر أيضًا ينفذ سيناريو آخر الآخر وهكذا إلى ما لا نهاية، تساؤلات أبدية لم أجد لها إجابة.

وحين عدت إلى منزلي منحني عادلٌ مفاجأةً سارة حين استقبلني بابتسامته وخنفه قائلاً:

- نسيت السكة بس ركبت الميكروباص وسألت، صحيح يا خال اللي يسأل ما يتوهش.

في تلك المرة كان بإمكاني الضحك لأن السيناريو لم ينقلب ضدي كما في مراتٍ أخرى.

١٩

وقتما كان يعاودني الهاتف كنت أنسى تفاصيل حياتي الأخرى، وأنسى وجود عادل وأنسى عدمه.

ذات يومٍ لم يحضر عادل إلى المستشفى، سألني عنه زملاؤه بقسم الاستقبال وأجبت بأني لا أدري مكانه، وفي المساء حين عدت إلى المنزل لم يعد، وقبل منتصف الليل بقليل خابرني أحدهم تليفونيًا، وأفاد بالقبض عليه إثر اشتراكه في مظاهرة فضت بنجاح.

وكان قد ناقشني منذ ليلتين ورفضت، أنا لا أتضامن مع أحدٍ، أنا فقط أشاهد الحياة بلذةٍ ساخرةٍ، وحين أرى مصائب الآخرين أنتشي بنشوة الفرح.

وبعد منتصف الليل حملت له طعامًا وسجائر، وكان لا يزال في قسم الشرطة محتجزًا وفي الصباح يُرَحَل، وعلى الباب الخشبي للحجز بالمفصلتين العريضتين على جانبه، والشباك الحديدي ذي القضبان الحديدية الغليظة أعلاه، استقبلني أحد العتاة اللومانجية الذين يبيتون في الحجز كل ليلةٍ قائلاً :

- عايز مين يا حلاوة.

- عادل بتاع المظاهرات .

أجبته فعاود السؤال :

- المنياوي؟ .

أجبته بالإيجاب فسألني عن مدينتي، قلت المحلة فقال :

- ماشي يا بِلدي ده احنا حلاوية زي بعض، هات يا بلدي أوصلها له .

وناولته الطعام والسجائر وأوصيته بعادل خيرًا فقال لي :

- عيني يا عسلية هازجزجهولك.

ومضيت آمنًا مطمئنًا دون أن أدري فعل الزجزجة، وخرجت من القسم وفي يدي سيجارتي أدخن، وعند بابه استقبلتني خطي مراقبة لسيري.

من خلفي سمعت صوتها، تلفتُّ فرأيتهما، لو استند أحدهما إلى الهرم الأكبر لجعله دكًا دكًا، ولو مال أحدهم على أذنيّ وهمس بداخلها همسًا لسقطت من فوري مصعوقًا بي صمم.

وعبر الشوارع المظلمة لليل وسط المدينة، كان عليّ أن أتفادى دوريات درك الليل المعتادة ولجان الاشتباه المعتادة، وأن أعمل جاهدًا على الفكاكِ من المراقبة غير المعتادة، وكان طريقي إلى الميكروباص لا يزال طويلاً طويلاً.

وعند ناصية أحد الشوارع انعطفتُ سريعًا ودخلت إلى ممر قديم به مقهى، ومشيتُ بداخله حتى المبولة وظللتُ داخلها بحجة التبول، حتى أطمأن قلبي فتسللت خارجًا .

سمعتُ ذبذبة حسبتها للاسلكي حسبت أن أحد المراقبين لي يحمله، وعند طرف الممر الذي أتيت من ناحيته رأيتُ أثنين ينظران إلي وينتظرانني، فخرجت من الطرف الآخر حتى وصلت الشارع وأوقفت تاكسي .

ركبت التاكسي وأرحت جسدي المنهك على المقعد الأمامي، وأشعلت سيجارة لنفسي وأشعلت للسائق أخرى، ومددت يدي عبر النافذة الجانبية لأعدل من وضع المرآة

الجانبية فرأيت فيها سيارة تسير خلفنا، تمشي الهوينى تراقبنا، وعندما التفت مرة أخرى ناحية الطريق كنت قد وصلت غايتي .

نزلتُ من التاكسي وكان رجال المرور يطاردون رجال الميكروباصات، ورجال الميكروباصات يركبون الميكروباصات فتعدو الميكروباصات ويعدو الركاب من خلفها، فتقف تارة وتجري هاربةً تارة أخرى.

استندت إلى أحد الأعمدة أنتظر ميكروباصًا دون مطاردة، ولمحت عن بعد اثنين آخرين ينظران تجاهي يراقبان ما أفعله، يضع أحدهما سماعةً على أحدى أذنيه ويميل على الآخر ينصت إليه بأذنه الأخرى.

أفلتنا ميكروباصًا وأفلتُّ ميكروباصًا وجاء الثالث يجري فلم أفلته، عدوت خلفه حتى لحقته فلحقاه ولحقاني وركبا معي، واحدٌ عن يميني والآخر أمامه على مسند الأقدام خلف الراكبين الأماميين، وأراح الجالس عن يميني ذراعه على كتفي ولفه حوله، وأن هي إلا برهة قصيرة ووقفة قصيرة بعد حين قصير، نزل فيها الراكب عن يساري فأنضم الزميل إلى زميله وأصبح الاثنان بجواري، واحدٌ عن يميني والآخر عن شِمالي، وأنا بينهما جالسًا خائفًا أترقب.

"مسكاه وهنجيبهولك" هذا ما قاله الجالس عن يساري في هاتفه حين أتصل،" كله تمام يا باشا، تحت أمرك " هذا ما قاله الجالس عن يميني وهو يرد على هاتفه بعدما رن في جيبه وأخرجه، "على جنب يا اسطى" هذا ما قلته للسائق وهو مسرع، وقبل بلوغ الميكروباص الميدان قفزت .

دفعت الجالس عن يميني ثم أغلقت الباب بسحبه بسرعة، ولامست قدماي الاسفلت الجامد فاستقرت ساقاي، أسلمت نفسي لنسائم السحر فانطلقت .

عبرت الميدان وخطوت خطوتين على طريق عودتي وأنصتُّ إلى قدميّ أسمع خطوتي، وأوازن بين إيقاعها الخارجي وإيقاعي الداخلي، حتى انتظمتْ على صوتِ خطاها ضربات قلبي.

سمعت صوتَ زوجين آخرين من الجزم خلفي فاضطرب قلبي مرةً أخرى، تلفتُّ فوجدتهما، أسرعت وانتحيتُ جانبًا تحت ظل شجرة أشرب من مبرد ماء موضوع أسفلها ونظرت خلفي فتوقفا، هكذا أسلمني الآخران للآخرين لتستمر المراقبة .

شربت وسرت فسارا، ودخلتُ في شارعٍ جانبيٍ صغير فدخلا، انعطفت منه إلى شارع جانبي أصغر ثم انعطفت إلى عطفة مظلمة وأفلتُّ منهما .

في فمي بدا طعمٌ غريبٌ، بدأ خفيفًا أول ما شربتُ، وتعمق مع مسيري حتى أشتد وملك عليّ كل فمي .

في البدء كان المذاق كمسحوق الغسيل ثم أصبح كطعم الصابون السائل ثم كطعم كلور مخلوط بزهرة مخلوطيّن بحمض فنيك معتق، ومع الطعم سرى تميل من أسفل جسدي إلى أعلاه، وفي الحلق غصة وفي القلب لغط يعلو، وعلى جبهتي تصاعد العرق البارد وصار تنفسي منهكًا لي، وفي فمي نشفان ريقٍ غير مسبوقٍ، صرت ألهث وكدت اسقط مغشيًا عليّ.

(قال قائلٌ فيما مضى :" لو أنك تدربت على شرب السم يومًا بعد يومٍ لن يقتلك "، ثم أردف ذلك القائل الذي لم التقِ به أبدًا وبالتالي لم أسمعه، " هذا ما فعله راسبوتين من قبل فلم يمت بالسم ومات بغيره " .

وقال قائلٌ آخرٌ سمعته في صغري إن سكانًا من قريتنا نزلوا من سيارة الأجرة التي استأجروها لتسير بهم من قرية أخرى إلى قريتنا، وشربوا قيامًا من الأزيار القائمة على الطريق وعرضوا على السائق الماء فاعرض قائلاً :" إني صائمٌ .. إني صائمٌ .. إني صائمٌ "، ولما رجعوا إلى القرية ماتوا جميعًا إلا السائق، فرجعت القرية إلى الأزيار تكسرها فوجدوها مليئة بالثعابين السامة التي تبخ سمها، ونجا الصائم بصومه.

وقال قائلٌ ثالثُ سمعته لتوي : " يا ليتني كنت صائمًا ويا ليتك لم تشرب من هذا المُبَرِد أبدًا ") .

حين وصلته منهكًا معروقًا كان المقهى خاليًا إلا قليلاً، ودخلتُ الحمام الخلفي وعدت إلى ركني فلم أجد أحدًا.

جلستُ وقد خلا المقهى من رواده، وبدأ العاملون في كنس الأرض المتسخة، وطلبت شايًا بالنعناع قبل إغلاق النار من تحت النصبة، لكنهما جاءا قبل أن يأتيني وجلسا مني غير بعيد.

أنهيا حجرهما الأول وناديا على العامل الناعس فرص الثاني، وأنهيتُ الشاي وزال التنميل عن جسدي، وقام أحدهما ووضع على أذنه هاتفه وخرج .

"سيبلغان عني ثم يرجعان للقبض عليّ" هذا ما حدثتني به نفسي، تحسست جيبي وأخرجت من محفظتي حساب الشاي وأعدتها إلى جيبي الخلفي مرة أخرى، وأعدت إلى جيبي الأمامي علبة سجائري وهممتُ بالقيام قبل عودة الآخر.

ما أن رآني الباقي منهما أتناول سجائري وأضعها في جيبي وأهم بالقيام حتى قام ولحقني قبل أن أقوم من مقامي، وأسقط فوق رأسي ظله قبل أن يرتد إليّ طرفي، تحركت لأقف فوقعت يده الغليظة على كتفي .

تباطأت في الوقوف فزادت يده على كتفي ثقلاً ونظرت إلى يده الأخرى فرأيتها تعبث بهاتفه لاستدعاء زميله وباقي القوة، ببطءٍ رفعت بصري إليه وكان العرق البارد قد نضح إلى جبهتي فأغرقها، وحين تواجهت عينانا أنزل يده وخبطها بقوة على الطاولة الخشبية، وسألني بصوتٍ غليظ :

- معاك ولاعة .

فألقيتها أمامه على الطاولة وأسرعتُ لأخرج، وخطوت عبر الطاولات الخشبية وهو يناديني وأنا أسعى دون إلتفات.

قفزت درجتيّ العتبة الفاصلة وأصبحتُ على الرصيف، ورفعتُ ساقيّ عن الأرض لأنطلق، وقبل أن أضعها ثانيةً لأرفع الأخرى، وأنزلها لأرفع الأولى، ثم أنزلها لأرفع الأخرى وأجري، وضع أحدهم يده عليّ، وأمسك من الخلف معصمي الأيمن.

أنزلتُ ساقي وأنا أدير جسدي على مهلٍ وأفكر في خطة الهرب :

١- يده تمسك من الخلف معصمي بقبضة غير قاسية، وحين ألتفتُّ سأُقبض علي قبضته الممسكة بيدي اليمنى بقبضتي اليسرى.

٢- عندما أقبض على قبضته، سأؤرجح يدي اليمنى، يمنة ويسرة، وأقلبها من بعد فردها، وأضرب بسيف يدي اليمنى على يده الممسكة بمعصم يدي اليمنى.

٣- سأدفع ساقه بركلة قوية من ساقي وأخلص يدي، وذلك قبل أن يأتي الآخر من الداخل ويقبض عليّ.

والتفت ببطءٍ وأنا أقبض بيدي اليسرى على معصم يده الممسكة بيدي اليمنى، وفردت يدي اليمنى وقبل أن أؤرجحها نظر إليّ، وتبسم ضاحكًا من فعلتي قائلاً :" إيه يا نجم إتخضيت ولا إيه، حساب الشاي ولا هتخليه لبكرة "، ناولته الحساب وأتاني الآخر من الداخل وناولني الولاعة، وتحدث معي كي يعطلني حتى يعود صاحبه، وتلكأ عامل المقهى في الحساب حتى يستطيعا القبض عليّ، فتركتُ باقي الحساب وباقي الحديث، ومضيتُ أسعى إلى منزلي .

كانت الأعمدة المضيئة بإضاءات شاحبة تلقى بظلالها على الشوارع المظلمة بظلام ما قبل الفجر، وكانت ظلالٌ أخرى ضعيفة تتحرك هنا وهناك، وعن يساري لمحت ظلاً والتفتُّ إليه فصار خلفي، والتفتُّ خلفي فصار عن يميني، وأدرتُ وجهي والتفتُّ عن يميني فصار خلفي مرة أخرى، فدرتُ سريعًا خلفي فاختفى، وألتفتُّ إلى الأمام مرة أخرى فعاود الظهور عن يساري مرة أخرى.

سائرًا بالجنب، اقتربتُ منه دون أن ألتفتُ، فكبر جدًا حتى اختفى متلاشيًا، ابتعدتُ فظهر مرة أخرى، اقتربتُ فكبر واختفى، ومضيتُ أمشي ملتصقًا بالحائط فتلاشى تمامًا.

يا صاحبيّ السجنُ غدًا يغيب صاحبي بالسجن، ألقاه أصحابه في الجب واتهموا الذئب، والذئب مبرئًا لنفسه يعوي.

أعهو .. أعهو

ما بال الذئاب تأتي على أسفلت الطريق الأملس، أم أنها الكلاب تسعي عند الفجر تعوي مولد القمر، وكيف تأتي الذئاب في قلب المدينة بعيدًا عن الحقول ولا كرم قريب ولا عنب .

أعهو .. أعهو

عاد صوت الذئاب أقوى واقتربْ، عاودتُ بحثي عنها وعاودُ الظل الظهور من خلفي، وسمعتُ صوت خطوات أخل بإيقاع سمعي لخطوتي وحدي، التفت فرأيتُ أحد السائرين خلفي يراقبني منفردًا، توقفتُ والتفتُّ إليه فأكمل سيره دون أن يقف، كان أحد العابرين عرضًا، سأسأله عن الذئب إن كان قد سمعه.

سار حتى قاربني وبينما يعبر كتفه ظل كتفي سمعتُ ...

أعهو .. أعهو

وللمرة الثالثة أتاني الصوتَ، فتبسمتُ، ورأيته يرفع يده على فمه يتثاءب فأطمأن قلبي .

٢٠

ثلاثة أسابيع مكثها عادل بالسجن، وقبل أن يبدأ الأسبوع الرابع خرج.

في نهاية الأسبوع الأول وصلتني أخبارٌ أن هناك من يهتم لأمره فتوقفت عن الاهتمام لأمره، وفي منتصف الأسبوع الثاني قال لي زملاؤه أنّ إنذارًا بالفصل قد صدر بحقه، وأنّ عليّ العمل معهم لإيقاف ذلك الفصل، فلم أهتم.

كان عادل قد أختار سيناريو حياته الذي لم يفرضه عليه أحدٌ، والذي لم أخططه له ليصبح من حقي التدخل في مجريات الأحداث، ولو تدخلتُ سيعتبر ذلك انتهاكًا لمبدأي الوحيد في الحياة،(عدم التدخل)، حتى في سيناريوهاتي المتخيلة لا أتدخل سوي بفعل البدء، وأترك الخيارات مفتوحة وأكتفي بمراقبة سير الأحداث والمقامرة على النتائج .

وقالوا قولهم فتراءتْ أمام عينيّ كفتا ميزان، في أولهما وضعتُ خيار التدخل للمرة الأولى في حياتي بدلاً من الاكتفاء بمتعة المشاهدة الساحرة، وفي الثانية وضعتُ

إخلاصي لمبادئي والتفاني في الثبات عليها حتى الممات، ولكوني إنسانًا مبدئيًا يخشى على طهارة قضيته المقدسة، رَجَحْتُ الكفة الثانية، وأطمأن قلبي وبدأتُ في تخطيط سيناريو جديد لعادل بدءًا من لحظة فصله من العمل، وراهنت على نتائج الأحداث، كان ذلك هو ثالث سيناريو أضعه له في ذهني .

وطوال السيناريو الأول الذي بدأته بدعوة عادل للإقامة معي، كنت أشاهد سير الأحداث بتلذذ ولم يهز كياني سوى القبض عليه، ربي السجن أسوأ عندي حتى من مقتله صريعًا في انقلاب الميكروباص الذي أرشدته لركوبه ذات يوم، وأسوأ عندي من إصابته بطلقٍ ناريٍ في ساقه يؤدي إلى بترها، ذلك سيمتعني بمراقبة مسيرة حياته الجديدة بساقٍ سليمة وأخرى خشبية، أي شيءٍ أفضل عندي من إلقائه في السجن، لما عاد عليّ من إحساس دائم بالمراقبة، هكذا وضعني عادل فيما لا أرغب، فليحترق هو طالما بقيت بعيدًا أتفرج عليه.

وحين جاءني بعدها اثنان من زملاء عادل في العمل السياسي، واثنان من زملائه في العمل، وجلسنا سويًا على المقهى، ولامني اللائمون منهم على سلبيتي لم أستمع إلى لومهم إلا لمامًا، وذلك فقط بغرض المشاهدة الساخرة.

صرخوا في وجهي قائلين بأني جبان أتخلى عن صديقي بجبني، فصرخت في وجهم قائلاً " أبدًا .. أبدًا .. أبدًا "، ووقفت مغاضباً لأسرع أحداث ذلك الفيلم التراجيدي الميلودرامي المضحك بعنفٍ.

قمت عن طاولتهم فقاموا ليلحقوا بي ليزيدوا في لومهم، ولومهم ككل لومٍ آخرٍ مُلام عليه بافتراضه حقًا بينًا وباطلاً بينًا، وكلٌ من الحق والباطل ينتميان إلى ذات العالم القيمي وإن كانا على طرفي نقيض، بالحق قدرٌ من الباطل قدرَ ما بالباطل من الحق، وهم كانوا يلعبون دور جنود الحق البواسل لبناء عالمٍ من الحق، لن يختلف كثيرًا عن عالم الباطل، العالم ليس سوى مراقبةٍ ورقابةٍ وقوانينٍ حاكمةٍ وتدخل في حياة الآخرين بدعاوي مختلفة.

طردتهم من أمامي فانصرفوا يبرطمون بعدم حبي لعادل فأمنتُ على قولهم، أنا لا أحب عادل .. أنا لا أحب جيجي .. أنا لا أحب أحدًا، الحب فعل تدخل في حياة الآخرين ومراقبة لأفعالهم بدعوى الخوف عليهم، هذا ما فعله حب والديّ بي، طردني من البيت خشية الجنون، هذا ما فعله حب خالتي بي، طردني من البيتِ خشية الفضيحة . هكذا تركت عادل دون مساعدة لأشاهد نتيجة الأحداث وألعب لعبتي الوحيدة المتبقية لي دون تدخل الآخرين لإفسادها، المراهنة على نتائج الأحداث، وقبل عامٍ

اتصلت بي أمي قائلةً أن أبي يحتضر، وأردفت أنه، كعادة كل الآباء المحتضرين، يرغب في رؤيتي، فلم أذهب لرؤيته وبقيت في شقتي أتصل بها كل يومٍ لأعرف سير الأحداث وأقامر مع نفسي على النتائج، وحين مات فرحتُ لأني كسبتُ الرهان على موته، وبعد طقوس الدفن والعزاء عدتُ إلى قريتي، في مرة وحيدة بعد الخروج لأشاهد مجريات أحداث ما بعد الوفاة وللمرة الثانية ربحتُ الرهان، سقطت أمي طريحة الفراش مريضة بالقلب والسكر، كعادة كل الأمهات العجائز المتوفى عنهن أزواجهن.

وحزنتُ بشدة على أنّ أمي، تلك الأم الجميلة الرقيقة العطوف الحنون المحنكة، لم يهدها ذكاؤها لإبداع سيناريو مخالفٍ للأكليشيهات القديمة، واكتفتْ بتكرار أحداث مئات الأفلام السينمائية القديمة التي شاهدتْها من قبل، بحيث لم أعد أدري هل تكتب الأفلام بهذه الواقعية المتقنة، أم أن تأثيرها على مشاهديها يصل إلى حد التقمص الأعمى؟، وربما لو جُنَتْ أمي وخرجت ذات يومٍ على القرية عاريةً، تبول فوق رؤوسهم ثم قطعت رأسها بمنجل الحصاد، وأمسكت رأسها بعدما قطعته ووضعته في يدها وأخرجت لسانها ولعبته، لكان في ذلك بعض تجديد يطمئن قلبي على إبداعها

التأليفي، لكنها، وربما لتعاندني ليس أكثر، سارت على الشاكلة القديمة وحرمتني من متعتي، يا لقسوة الأمهات على أبنائهن .

وخرج عادل من السجن وعاد إلى المنزل، وكنت قد عدت سيرتي الأولى في دس القصص.

وطوال أسبوعين تاليين لخروجه كنت قليلاً ما ألقاه بالمصادفة، أعبر مَيْدان الصالة الضيق فأراه قادمًا من طريق محور المطبخ - الحمام، وأخرج من غرفتي إلى الحمام فأراه آتيًا من الاتجاه المعاكس .

وعاد عادل إلى العمل، بعدما انقطعتُ عن العمل، بطلاً متوجًا بأكاليل الغار .

وعندما بلغتْ قصتي الأخرى ذروتها وقاربتْ على الانتهاء أتاني عادل مكتئبًا .

جلسنا وأشعلنا سجائرنا ندخن، وحكى لي أن العالم قد تخلى عنه وأنه قد اكتشف فجأة، أن كل حياته مُثلاً زائفةً زائفةً، فامتنعتُ عن القهقهة حفاظًا على مشاعره، لو رآني أسخر منه سيقوم عني مغاضبًا ويفسد عليّ متعة مشاهدته يتألم من فرط غبائه، وكثيرًا ما تمنيتُ أن يتخلى عني العالم ويتركني في حالي وحيدًا أشاهد أحداثه من بعيد .

قال عادل أنّ حتى أنا لم أهتم لهمه، وأنّ زيارتي الوحيدة في ليلته الوحيدة في حجز القسم لم تعد عليه سوى بالأذى، سألته بفضولٍ عن فعل الزجزجة فأجابني بأنهم علقوا

الزيارة التي جِئته بها في سقف الزنزانة وأمروه بالقفز نحوها، فلما قفز قفزوا عليه وخلعوا ملابسه وزجزجوه، فبان في عينيّ الأسى .

تلك إذًا فرصةً ضائعة، ولو كنت أدري فعل الزجزجة لأوصيتهم بالمزيد، كيف أفلتُّ من يديّ تأليف ذلك السيناريو الجيد والمراهنة على نتائجه ومشاهدة أحداثه الممتعة؟، وقال عادل أنّ زملاءه قد استخدموه بعد خروجه من السجن وصنعوا منه نجمًا، فلما أفل أشاحوا بوجوههم عنه وتركوه قائمًا يتلفت حوله فلا يجد أحدًا، فانطلقتُ في حديثٍ طويلٍ عن النفعية والانتهازية واستخدام البشر كأدوات لقضاء حاجاتٍ ما، ليزيد من حديثه الشجي ويشجيني بتعبيرات سيد قشطة المرتسمة على وجهه، فزاد في حديثه حتى ملأني أسى عميق على كل تلك الفرص الضائعة من بين يديّ لمشاهدة الأحداث والمراهنة على نتائجها والسخرية من جدية أبطالها المضحكين بشدة.

يومان مرا على ذلك النقاش، وفي ليلة اكتمل فيها القمر، سمعت حركة في غرفتي، فتحت عيني قليلاً فرأيته واقفًا بالقرب من سريري ونصفه الأعلى عاريًا تمامًا، ويفحصني باهتمام، أقتربَ مني فتظاهرتُ بالنوم، أقتربَ مني أكثر ووضع يده على طرف السرير، ثم قفز،

وظل برهة ،

تحت السرير، ثم خرج بسيفٍ قديمٍ، كنت قد اشتريته ذات يوم بغرض الانتحار، وعاد واقفًا بالقرب من السرير، وأخرجه من غمده، وقرب وجهه قربي حتى تأكد من نومي، ورفعه عاليًا فلمع طرفه الحاد، ثم أنزله وخرج .

قمتُ من سريري متسحبًا، ووقفتُ خلف الباب الموارب لغرفتي أراقبه وهو يجلس على كنبة الصالة وأمامه الطاولة الخشبية التي يضع عليها كتبه .

أمسك السيف وأسند طرفه الحاد إلى صدره وأسند مقبضه إلى طرف الطاولة الخشبية، وتلفت ناحية اليمين وتلفت ناحية اليسار ونظر إلى الأعلى، ثم نزل بجسده على الكنبة واستلقى وهو يبكي .

في الصباح استيقظتُ، ووجدتُ السيف القديم مرميًا على أرضية غرفتي يلمع طرفه الحاد بلون أحمرٍ قاتمٍ، رفعته عن الأرض فزال عنه انعكاس برج الكنيسة القديمة .

بحثتُ عن عادل فلم أجده، وتفقدته ذات اليمين وتفقدته ذات اليسار فلم أجد سوى رسالةٍ مكتوبةٍ ببلاغة مسرحية، يبلغني فيها أنه عاد إلى قريته يائسًا .

وهكذا تركني عادل وحيدًا وحرمني من متعة مراقبة أفعاله الساذجة .

في صباح آخرٍ مثل ذلك الصباح اختفت سهام، وتركت خلفها بنطالاً من الجينز بحرفٍ مطبوعٍ عليه من الخلف، ومضت .

سهام

أو تفسير جديد لمعلومات قديمة

٢١

بدأت سهام العمل قبلي، كان قد مضى عامٌ على تخرجي وكان ذلك أول عمل منتظم أحصل عليه.

ذات يومٍ جاءت الغريبة، قدمها لنا رئيس التحرير باسمها الحقيقي فلم أنتبه، أعاد تقديمها باسمها الذي تذيل به مقالاتها، الغريبة، فصافحتها بحرارة .

جاءت في زيارة سريعة لمصر، وكنت قد قرأت نصوصًا جيدة لها، في ذلك الوقت كنت معجباً بلغتها الرومانسية وإيقاعها الغنائي .

على مائدة الغداء جلسنا سوياً نتحدث عن الكتابة وتوافقنا على الكثير من الآراء، في الصباح التالي أتت إليّ وجالستني طوال النهار، نتحدث ونتحدث ونتحدث، على كتفي وضعت يدَها ولعبت بأناملها في شعري،" أنت لطيف " قالتها بعد تنهيدة طويلة أطلقتها .

وأنا كنتُ عذراءً، في المساء ذهبنا جميعًا إلى منزل رئيس التحرير في سهرة صغيرة على شرف الغريبة، مطفئة جاءت سهام فلم يلحظها أحد، ترتدي تنورتها القصيرة التي تدخرها لزبائن العمل المهمين .

في فستان أسود جاءت الغريبة، من فوقه معطف أسود، وعلى عنقها عقد من الخرز الأسود، وأرسلت شعرها الأسود فوق وجهها الأبيض وعنقها الأبيض، وزيادة في الغموض، وضعت في قدميها حذاءً أسود ذا كعب .

ويسألني مضيفي فلا أجب، أمد يدي غير المدربة على بهرجات الاحتفالات والعارفة لماركة واحدة من علب البيرة، فيقدمها لي مضيفي بأدب تقتضيه بدايات السهرات، قبل اختفاء الجميع عن ناظريّ وانتحاء كل زوج مع زوجه الآتي معه .

بعد علبة البيرة الأولى تراقصني الغريبة رقصتها الأولى، تخاصرني وتميل على أذني، يلامس شعرها خدي وتهمس قائلةً "سأسافر بعد غد، فأغتنم الفرصة " .

بعد علبة البيرة الثانية تميل عليّ بكأسٍ من النبيذ ممتلئ، أسألها " أهذا نبيذ ؟ "، فتغمز بعينها اليسرى قائلةً " هذا غزل ".

قبل علبة البيرة الثالثة أمسك بيدها فتفلتها من يدي، انتهت فترتي فليأت الآخرون من بعدي.

أسألهم ماذا يشربون ؟، بعد علبة البيرة الثالثة والتبول الأول تنفتح أبواب قلبي، وتحل عقدة من لساني بقليلٍ من دوار بدء الثمالة، أسألهم فلا يجيبون، ينظر اثنان منهم إلى فعل الغريبة، يتهامسان وألمح على الوجهين شبح ابتسامة ترتسم .

يميل عليّ أحد الحضور يملي بنصائحه عن ضرورة تغيير البيرة وبدء السمو التدريجي نحو التركيزات العلى، فاستجيب صاغرًا .

بعد كأس النبيذ الثاني والتبول الثاني، أراها تخاصر غيري تراقصه، تتركه وتخاصر غيره تراقصه، فأشرب كأسًا من العرق الأبيض، وأذهب للقيء الأول على الأرضية السيراميك في حمامِ الشقة الفارهة .

قامت بإطفاء الجميع وظلت متوهجة، بعد وصولي للثمالة أمسك في يدي بكوبٍ ممتلئٍ حتى الحافة بجيد الفودكا، يطلبها أحدهم للرقص فترفض، تجلس غير بعيد تبتسم

ضاحكة من سكري، تنظر إليّ غامزةً، ثملاً أُلقي الكوب بداخلي مرة واحدة، أطلبها للرقص فترفض.

مرة واحدة ألقي الكوب الثاني بداخلي، أثمل للمرة الثانية وأجلس لأدخن، يناولني أحد الحضور سيجارةً لا أدري ما بها، أدخنها على عجلٍ فأطير مرة أخرى، وأشرب كوبي الثالث الممتلئ حتى الحافة وتشربني الزجاجة الموضوعة أمامي حتى تنتهي، أدخن سيجارتي الثانية .

في منتصف الصالة الواسعة أقف، أسحب الغريبة من يدها فتسحب يدها من يدي، ترفض الرقص معي فأرقص وحيدًا، يراني الجميع ويضحكون، أدور وأدور، ألف حول نفسي فأصعد وألامس برأسي السقف، أقيء ما بداخلي وأهبط.

على الأرض أسقط ومن حولي الآخرون يلتفون، يدوسون بأقدامهم على أطرافي، أقوم وأهرب منهم، أطارد الغريبة فتصبح فرسًا أسود، ألحقها وأمسكها، تلتفتْ إليّ، تصير شبحًا أسود يطاردني، أهرب منها ومنهم عبر ممرات الشقة كلها، وأدور في الممرات فتدور حولي الممرات وتضيق عليّ الممرات، أهرب منهم، أخرج إلى السلم .

أدور دورتي الأولى ولا أنزل الدرج، أدور دورتي الثانية ولا أنزل الدرج، الثالثة ولا أنزل الدرج، والرابعة والخامسة ثم أقفز، أهبط على الاسفلت فتسري الرجفة من أسفلي إلى أعلاي، أحفظ توازني ولا أسقط، أجري .

إلى الأسفلت يصلون جميعًا من خلفي، يطاردونني فأجري وأجري ثم أجري، ومن حولي الطريق مظلم والدروب مظلمة والليل مظلم، أحس بألمٍ في معدتي فأنحني أقيء ما بداخلي، ومن خلفي وقع خطوهم يطاردني، فأجري ثم أجري حتى ينتهي الطريق .

من بعيد ألمح نارًا، حولها الجمع الراقص وكل يدٍ مضمومة إلى أختها، أصلهم فتنفتح الدائرة وتضمني بداخلها، تمسك أياديهم بيديّ وأدور معهم دورتي الأولي، أغني ثم أنحني، أقيء ما بداخلي وأعتدل، أراهم جميعًا يلبسون السواد كما الغريبة، يجرون خلفي فأسقط تحت شجرة.

تأتيني تحت الشجرة، تأخذ رأسي، تضعها على حجرها وتحشرها بين نخذيها، تعدلها ثم تخلع عن جسدها الجلباب الشفاف، تفتح ساقيها الملساوين وتضع رأسي بين نخذيها العاريين، فيلامس شعري بطنها الملساء المنحنية قرب عانتها، أقلب رأسي ناحيتها ويسيل لعابي على بطنها، تضمني أكثر على عانتها فأُخرج لساني ألحس عانتها، تصغر

العانة، أشد شعر عانتها، فتصغر العانة أكثر، وفي لساني أحس بطعم العرق المالح فأفيق من نومي.

أفتح عينيّ فأرى نخذيها الضامرين ومقعدتها الممتلئة بغير ما اتساق، من فوقها خصرها النحيف، من فوقه ثدياها المقاربان للمسح، وأضلاعها البارزة من تحت جلدها الأسمر، تميل عليّ بشعرها الخشن القصير المصبوغ بالأحمر، أحسه شائكًا جدًا رغم محاولات الفرد المتكرر، تخرج من الغرفة لترى شريكتها في الشقة قبل نزولها إلى العمل.

كانت سهام قد حملتني إلى منزلها بعد سقوطي مغشياً عليّ، وظل رأسي تحت إبطها المعروق، وحين قمت من السرير أخذتُ في تفتيش كل جدران الغرفة بحثًا عن كاميرات المراقبة الموضوعة من قِبَل من أوقعني في ذلك السيناريو الذي لم أختره أبدًا، ولا بد أنه هناك قائمًا، يراقبني ويضحك.

طوال ثلاث سنوات بعد تلك الليلة كان بإمكاني الهرب ولم أهرب، كنت بحاجةٍ إلى جسدٍ ينام تحتي، مابين خشب السرير والمرتبة الجامدة والملاءات الخشنة وبيني .

في البدءِ كانت عذراء الربيع تحب أن آتيها من الخلف، بعدما ألعق جسدها مرتين وأمص وألحس، أضعه في مؤخرتها حفاظًا على بكارة جسدية.

بعد شهرين من بدء علاقتنا، قررتُ أن يسيل دم بكارتها، فأصرتْ أن يكون ذلك بإصبعي، كانت دومًا تخشى مخالفة الطقوس، وبعد لعق ولحس ومص تجهزتْ للفعل، فتحت فخذيها وأدخلتُ إصبعي وأخرجته، ووضعتُ قضيبي وظللتُ بداخلها.

نحو أنفي رفعت إصبعي أشم رائحة دم بكارتها، فضربتني على يدي صارخة :"بطل قرف"، فضربتها على صدرها الضامر فانتفخ، بقوة أكثر دخلتها ورفعت إصبعي أشمه فضربتني على يدي مرة أخرى ضربة أشد، صفعتها بقوة أشد ودخلتها بقوة أشد، أرفع إصبعي لأشمه فتضربني، فأضربها على جسدها النحيل، وحين أحسست بآلام عظام يدي لكمتها على بطنها بشدة فتألمتْ، وقذفتُ فصرختْ من اللذة.

بعدها كانت ترفض إطالة زمن ما قبل الفعل، في الليل تأتيني متعبة راغبة في النوم فآخذها على الطاير فوق كنبة الصالة، ثم تنام على سريري وأظل على الكنبة.

ذات ليلة رجعت منهكة، سريعًا دخلتُ وسريعًا خرجتُ، ودخلت لتنام دون كلمة، في تلك الليلة رغبتُ للمرة الأولى في النوم بجانبها.

بجوارها استلقيت على السرير، كانت تنام ورأسها عند الحافة ناحية الشباك الصغير المطل على برج الكنيسة، وكنت أنام عكسها، رأسي عند قدمها، اعتدلتُ وتناولتُ كومة الأوراق الموضوعة على الأرض بجانب السرير، من فوقها أقلام الحبر السائل،

فاصطدمت أصابع قدمي بمثلث التقاء الفخذين وأحسست بليونة لم أحسها قبلاً حتى وأنا بداخلها .

حككت أصابع قدمي بين فخذيها فابتلت أصابعي وانتصبتُ، قبضت على قضيبي بيدي اليسرى أستمني، وقبضت بيدي اليمنى على قلمي أكتب، أحك كعبي فيزيد انتصابي، ويزيد انتصابي فيسيل الحبر من قلمي، وحين قذفتُ كنت قد أكملت عشر صفحات .

كانت كتاباتي الأولى كافكاوية سوداء تعبر عن حبٍ محبطٍ ضائع.

هكذا صارت حياتنا المشتركة، متعبة ترجع فأدخلها سريعًا وأخرج أسرع، وأتركها تنام حتى تستغرق في نومها، فأحمل أوراقي وأقلامي واستلقي بجوارها، أحك كعبي بين فخذيها، أستمنى بيدٍ وأكتب بالأخرى.

بعد أشهر صارت سهام تنام على بطنها، تحتل السرير بأكمله وترفض نومي بجانبها، فتوقفتُ عن الكتابة.

وذات ليلة أحضرت زجاجة من رخيص الخمر، وكنت قد أصبحت محنكًا بعد سكرة الغريبة، وشربت وشربت حتى سكرت، ولما رجعت سهام متعبة دخلتها كأنها الغريبة وطالت مدة الفعل بيننا، وحين خرجتُ كانت قد أنهكتْ، جلستْ وشربتْ معي فتقيأت ما بجوفها وسقطت من الإعياء مغشيًا عليها.

حملتها عن الأرض وألقيتها على السرير ونظرت إليها وهي على بطنها، في الليل بانت كالغريبة في ثوبها الأسود، فاستلقيت فوقها، دخلتها من الخلف كما اعتدنا في بداية علاقتنا، فلم تنتبه لي وأنا بداخلها، دخلتها بعنفٍ أكثر فلم تشعر، وبعنف أكثر فلم تشعر، أمسكتها من شعرها الخشن القصير وخبطتُ رأسها في المسند الخشبي للسرير فلم تشعر، ضربتها ثانيةً فلم تشعر، ضربتها مرة أخرى فسمعت صوت عظامها تتكسر، وتوهمتُ سماع صرخةٍ فانتصبتُ أكثر وقاربت على بلوغ ذروة متعتي، خمشتها بأظافري وشعرت بدمها على جلد أناملي، تشممتُ رائحة دمها الطازج فتصلبتُ، ودخلتها حتى التحمنا وصار صوت ارتطامي بأردافها صاخبًا، وضعتُ أسناني على مكان خربشاتي ومصصتُ دمها فبلغتُ الذروة وقذفتُ، وحين نزلت عنها كنت قد عثرتُ على أسلوبي الجديد في السخرية اللا مبالية.

وطوال عامين سارت حياتنا المشتركة على نفس الشاكلة، في الليل تأتيني متعبة قائلة "خلص عايزة أنام"، فأدخل وأخرج وهي واعية، وحين تستغرق في نومها أستلقي عليها، أدخلها من الخلف، أضربها وأخمشها وأترك علاماتي على جسدها، ثم أنزل عنها وأكتب وأنام على كنبة الصالة، وفي الصباح تستيقظ مهملة كل ذلك كأنه لم يكن، وتسعى طوال اليوم لتسيير حياتي في البيت والعمل.

في تلك الأيام صارت سهام أميل للفعل السريع دون حتى الاستلقاء على ظهرها، وصرت أكثر إصرارًا على إيلامها أثناء الفعل لأثنيها عن تجاهلها الصباحي لما أفعله في الليل؛ أدخن سجائري وأطفأها في أردافها، وفي الصباح تنكر، وأشعل النار في شعر إبطيها وتنكر، وذات مرة كسرت إصبع قدمها الأكبر وأنكرت، ومرة أخرى قرصت شفرتيها حتى تورمتا من احتقان الدم وأنكرت، وذات ليلةٍ جلدتها بحزامٍ جلديٍ جَلْدًا لا يَجْلِد عليها أشد الرجال جَلَدًا، وملأتها بعضات على طول ظهرها سال من بعضها الدم، ففتحت عينيها ونظرت ناحيتي وتمعنت في وجهي حتى تأكدت مني، ثم عادت للنوم، فنزلتُ على عنقها وعضضته حتى غرستُ أسناني في لحمها، وتمزقُ جلدها في فمي، وفي الصباح سألتها فأنكرتْ.

ولما دخلت عليها مكتبها في الجريدة، كانت تفتح ياقتها المقفولة على رقبتها، لتري زميلتها أثار العض متفاخرة، وحين سألتها أنكرت للمرة الثانية، وقتها أصابتني العِنة.

أدخلها ولا أنتصب، تعض قضيبي ولا أنتصب، أرفعه بأصابعي ولا أنتصب .

في الليلة الأولى من عنتي أمسكتُ بقلمي وخمشتها به على طول ظهرها وملأت جسدها بالكتابة وفي الصباح أنكرت، وفي الليلة الثانية مررت قلمي عليها فلم يكتب، حككتُ سنه فلم يكتب، غرسته في لحمها فلم يدخل .

توقف قلمي عن قذف حروف كتابتي، وسافرتْ سهام في رحلةِ عملٍ قصيرة .

٢٢

أربعة أيام في رحلة العمل، وستة لزيارة الأهل، تلك عشرة كاملة غابتها سهام ثم رجعت.

في تلك الأيام صارت همسات زملائي موترة لأعصابي أكثر فأكثر .

أدخل عليهم فتبدأ على الفور ضحكاتهم، أجلس فيبدأون في إلقاء نكات فاحشة كلها تحكي عن مصابين بالعنة، ومن خلف ظهري أسمعهم يتهامسون " ما بيعرفش .. ما بيقفش .. ما بيقدرش " .

في تلك الأيام وصلتني رسالة منى الأولى ولم أهتم بها إلا بعد فترة .

يوم بعد يوم صرت أكثر زهدًا في تأمل أجساد النساء، وحين أجلس لأكتب ترفض أقلامي الكتابة، في الأوراق أحك قلمًا فيأبى الحرف النزول، فأكسر القلم وأمسك بآخر، يفعل كفعل الأول فأكسره .

كل قلم أمسك به وأشخبط على أطراف الورقة يشخبط، أمسكه بغرض الكتابة فيتوقف الحبر عن السيلان.

في رحلة ذهابي إلى العمل بالمترو يصل توتري حده الأقصى، أدور بعينيّ باحثًا عن جسد مثير فلا أجد، وقبلاً كنت أجد الكثيرات وكنت أُستثار من أقل اقتراب ناحية أنثى.

فتاة وحيدة أثارت انتباهي حين صعدتْ، كانت ترتدي جيبة قطنية خفيفة، قدها نحيل ومؤخرتها مستديرة دون امتلاء، وفي قدميها الصغيرتين صندلٌ أبان عن أصابع دقيقة بطلاء لامع، وكاحل وباطن وكعب محمرين على بياض، وفوق قدميها ساقان ملفوفتان على جلدهما نمشٌ خفيف، ووجهها ذو قسمات منمنمة بعناية فوق رقبة منسرحة من تحتها نهدان بارتفاع وشدة، وجسدها مرسوم بالمسطرة.

دخلتْ، كان الزحام شديدًا وكنتُ مستندًا على الجدار المعدني بجوار الباب المغلق، وقفت أمامي وولتني ظهرها، دفعها الزحام فاندفعت ناحيتي وصار شعرها في فمي.

أحسستُ بليونة جسدها فمددتُ يدي لأتأكد، تحسستُ مؤخرتها فلم تبتعد، مررتُ أصابعي بخفة فلم تبتعد، أمسكتُ إليتها وأخذتُ في اعتصارها، لم تبتعد.

خف الزحام وظلت ملتصقة بي، أمسكتُ ردفيها ودفعتها نحو قضيبي فظلت جامدة دون حركة، ألتصقُ وأحتك، فلا تبتعد ولا تقترب ولا تهتز، في حالات سابقة كنت

انتصب لكني ارتخيت، وحين نزلتْ في محطتها كانت إعلانات الضعف الجنسي على جدران عربة المترو تشير إلي.

في الجمعة التالية ذهبت إلى سوق البضائع القديمة، واشتريت سيفًا قديمًا لأجرب الانتحار كسرًا للملل.

في طريق العودة ركبت أتوبيسًا مزدحمًا، وأمامي وقفت فتاة ممتلئة وجلست أمها أمامها، كانت رائحة عرقها نفاذة، فرفعت يدي وأمسكت بالعمود الحديدي العابر بطول الأتوبيس، وأسندت رأسي إلى ساعدي المثني لأسد أنفي، وأرخيت يدي الأخرى بالشنطة الموضوع فيها السيف في غمده نخبطت في مؤخرتها، ومع اهتزاز الأتوبيس شعرت بليونة لا بأس بها.

صارت تنحني كثيرًا لتكلم والدتها، توهمت وجود بعض التجاوب فانتصبتُ، كانت تلك هي المرة الأولى منذ شهر، وأحستْ هي بقضيبي على مؤخرتها، فانحنت تكلم والدتها الجالسة، وظلت هكذا حتى وصلتُ.

في موقف الأتوبيس دخلت الحمام بقضيبٍ منتصبٍ، أخذتُ أستمني فرن هاتفي

- حازم أنا جاية بكرة.

فارتخيت.

وعدتُ إلى المنزل بعدما اشتريتُ أربع زجاجات من رخيص الخمر، وجلست لأكتب فلم أستطع.

نزلت على الأرض أمام السرير وفي مواجهتي الشباك الصغير يظهر منه برج الكنيسة القديمة، وأسفل جسدي ساقاي المثنيتان، وضعت قبضتي بين فخذيّ والسيفُ في يديّ يلامس السرير ففرحت لطوله وثنيته ناحيتي، وأسندت طرفه إلى صدري، الآن أثقب نفسي قبل أن يثقبني غيري، شددتُ قبضتي، وشعرتُ بقضيبي المرخي تحتها فرميت السيف من يدي .

في الصباح عادت سهام من سفرها حائضًا فاطمأن قلبي ولم أذهب إلى العمل، أخرجت زجاجات الخمر الأربع وألقيتها كلها في جوفي، وفي الليل رجعت سهام والقمر بدرًا، حائضًا ولن تطلب.

استلقيت على الكنبة منهكًا وجلست سهام بجانبي تحدثني، تقيأتُ على صدري وغبتُ عن الوعي.

في ضوء البدر تعرت من ملابسها، وفي يدها أمسكت بشبشبها، ركعت ولامست برأسها الكنبة، ولفت وهي راكعة تدخل ضوء القمر في رحمها، وتضرب بشبشبها ثديها وعانتها ومؤخرتها .

تحلب الضوء ثم تلقيه عليها، وتبصق الضوء ثم تلقيه عليّ، وتضرب قضيبي بالشبشب ضربًا شديدًا، فأبدأ في الانتصاب.

تدور قاعدة على الأرض، رافعة ساقيها إلى الأعلى ونخذاها مفتوحان يجمعان ضوء القمر. تحلب نجمًا وتلقي عصيرًا أحمرًا في فرجها؛ في فمي تضع شفرتيها فينزل العصير داخلي، وعلى صدري أقيء ما بداخلي، تلعق القيء وتضربني بالشبشب على قضيبي حتى ينهض ويصير جاهزًا للعمل.

فوقي تجلس، وتصير تعلو وتهبط، وصدري يرتفع إلى السماء وهي فوقي، ومن جسدي يخرج لهيب أزرق يُمزِقُ لحمي، تصير عظامي عاريةً.

في فمي تبصق عصيرها الأحمر، ومن اللهب الأزرق تقتطع قطعة، تناولها لي وتضعها تحت لساني' وعلى قضيبي العظمي ينزل دمُ حيضها فيكسوه لحمًا وتبقى عظامي عارية.

على قفصي الصدري تضع فمها تقضم ضلوعي، وتنبش يديها في شرجي فأصعد معها إلى الأعلى وتُكسى عظامي لحمًا، أقذف فأنزل وتنزل من على جسدي.

حين جاء الصباح رأيتها نائمةً على سريري وأنا على الكنبة، وصدري غارقًا في قيءٍ ودم.

عن ذهني طردت كابوس الليل، وحين قمت عن الكنبة لأدخل الحمام رأيت لباسها المشجر ملقي على ساقي، وعلى أرضية الحمام وجدت كوندمًا ملوثًا بالدم بجواره فوطة صحية متسخة.

لو سألتها ستنكر كعادتها، ولو ألححتُ في السؤال ستتهمني بالجنون .

في اليوم التالي تركت سهام المنزل، ولم تترك خلفها سوى بنطالٍ من الجينز عليه حرفٌ مطبوعٌ من الخلف

.

٢٣

لما دخلت عليها مكتبها تجاهلت وجودي، وكانت قد تغيبتْ عن العمل يومين بعد اختفائها من منزلي .

سألتني صديقتها عن سبب دخولي عليهما ولم تتكلف هي عناء إلتفاتة ناحيتي، نخرجتُ من مكتبهما مسرعًا .

ما أن دخلت مكتب الديسك وجلست لأسترح حتى جاءني الساعي يسعى من عند رئيس التحرير بطلب رؤيتي، دخلتُ عليه فسألني فعلاً غريبًا، رفضته بشدة.

كان بوسعه طلب ذلك من أيٍ من زملاء الديسك غيري، وكان بإمكانه القيام بذلك بنفسه، لكنه فضل أن يسألني القيام به.

هو يعرف ما كان بيننا منذ ثلاث سنوات، حدث ذلك في شقته.

هو يدرك تمام الإدراك أني المتهم الأول حال حدوث أي مساس بنصوصها، وأدركت أنه يريد صياغة سيناريو لكلينا، تلعب هي فيه دور الضحية المشوه نصها وألعب فيه دور المجرم، فأبيت التدخل، كفاني سيناريوهات مفروضة عليّ طوال عمري .

وقبلاً فعلت ذلك لكن لا أحد يعرف، وكثيرًا ما استبدلتُ أسماء كتّاب مقالات وردت إلينا بأسماء كتّابٍ آخرين مختلفين بالكلية من حيث الآراء والاتجاهات، لا لشيءٍ إلا للهو بتبديل المواقع والمواقف، وذات مرة غيرت خاتمة مقالٍ عن التمسك بالمبادئ من " علينا أن نظل متمسكين بمبادئنا مهما كلفنا ذلك .. " إلى " علينا ألا نظل متمسكين .. "، وجلست أراقب أثر إبدال الحرف على المعنى والشخص .

في الصباح التالي غابت سهام عن العمل، قال القائلون قولهم عن شروعها في إجازة تمتد شهرًا، وفي الظهيرة جاءت صديقتها تحكها فاستعصمت مبتعدًا، فمالت عليّ هامسةٍ

:" خايف ليه، معايا حباية بريمو "، وأطلقت ضحكة صاخبة خرجت بعدها، وقبل انتهاء العمل أنتني ثانيةً واتكأت بثديها على كتفي فصاح زميل قائلاً :" يا شيخة تعالي لحد بيعرف "، وضحكا بصخبٍ، وأدركت أنّ سهام أذاعت الخبر فشاع وأنتشر .

وفي الأيام التالية تكررت أحاديث الزميلات والزملاء وأفعالهم، ذات مرة دفعتني أحداهن وألصقت ظهري بالجدار وخبطت بظهر يدها على قضيبي ثم قالت ساخرة :" آسفة نسيت إنه عطلان "، ومضت ضاحكة، وذات مرة سألني أحدهم عن المرخي كيف يقف فغمزه آخر قائلاً :" يبعت لحد يبعبصه "، وضحكا بصخب، وفعلتها واحدة أخرى وقال واحد آخر، وصرت خاضعًا للسيناريو الأخير الذي رسمته سهام قبل رحيلها، ووقفت بعيدًا نتفرج.

وعندما صدر عدد الجريدة، كان رئيس التحرير قد قام بفعلته وظهر نص الغريبة مشوهًا، وأرسلت رسالة غاضبة تهمني ونتوعد، ومنحني ذلك الفرصة للمرة الأولى في حياتي للهروب من سيناريو مفروضٍ عليّ .

دخلت غاضباً على رئيس التحرير، شخطتُ ونطرتُ، شوحتُ بيدي وشخرتُ، ثم خرجت.

قبل انسحابي الأخير أرسلت ردًا قصيرًا على رسالة مني، كنت أخشى أن تخلُ حياتي من حكاياتٍ أخلقها لأشاهدها وأراهن على نتائج أحداثها .

٢٤

نشرتُ القصة الثالثة فنشرها عاصم من بعدي دون تغيير يُذكر من قبله .

تصفحت موقع جريدته لأقرأ تعليقات قراءه التي تبهجني أيما بهجة، فلمحت اسمها .

مر يومان اتصلت بعدهما بالجريدة أسأل عنها، قالوا أنها في مكتبه، غبت ساعةً ثم عاودت الاتصال، قالوا خرجت من عنده، وعادت ودخلت مرة أخرى، وصدق حديث عامل البوفيه العجوز عن عملها في جريدةٍ أخرى .

حينما اتصلتُ بها كانت في طريقها لمكتبه .

ستدخل عليه وعليها جيبتها القماشية القصيرة المكرنشة بكرانيش ذات كُسر، التي تدخرها لرجالٍ مهمين في مسيرتها المهنية، ستجلس أمامه وتضع ساقًا على أخرى لتريه من ساقها النحيلة عظمتها البارزة، وهو جالس على مكتبه، من أمامه قصتي المنشورة التي اقتبسها لتوه.

كلاهما يعرف حازمًا غير الذي يعرفه الآخر، حازم حازمان وحازمان هما حازم، هما لم يجتمعا قط إلا أثناء اللعب، ويومًا سيصير حازمٌ حازمًا ويعاودا الإتحاد .

هي تعرف حازم الأول الذي يعرفه الجميع، حازم حسين حسن فني صيانة الحاسبات ومدخل البيانات السابق في جريدتها السابقة، حازم الذي تردد اسمه الثلاثي كثيرًا ليرن في حلقها جرس الحاء المتكرر، ويثير فيها إحساسًا جنسيًا باللهاث، حازم الذي يدخلها ليلاً ويخرج منها سريعًا كي تنام منهدة على السرير وينام بعيدًا عنها على كنبة خشبية في صالة جرداء.

هو يعرف حازم الآخر الذي لا يعرفه سوى القليل، حازم الصولي بهويته المستعارة التي صنعتها منذ سنوات وتاهت مني ثم عادت إلي فتلبستها مرة أخرى، بعد أن أخفيتها وحاولت محوها.

كانت سهام تعيش مع الحازمين ولم تلقاهما سويًا، حازم نفسه لم يلقاهما سويًا سِوى بعدما سَوَى علاقته بسهام، ترى الأول في يقظتها، عملاً وبيتًا وجنسًا، ثم تنام، فلا ترى الآخر وهو يأتيها من الخلف وهي نائمة، ويضربها ويخمشها ويجرحها ويجلدها، لتشعر به فتنكره.

مرة واحدة رأتهما معًا، قبل حتى أن يراهما حازم معًا، هي المرة الوحيدة التي جلسا فيها سويًا حين أصيبا معًا بالعنة، فتوقف حازم عن الفعل و توقف الصولي عن الكتابة، يومها رأتهما معًا، كانا جالسين يمسكان بالقلم ويحاولان الكتابة، فتبسمت ضاحكة وقالت ساخرة " مش لما تعرف الأول " .

حين تدخل سهام على عاصم سيكون جالسًا خلف مكتبه يتصفح آخر مقالاته المنقولة ويخط على الأوراق المطبوعة خطوطًا على آخر قصصه المسروقة، سيرى ساقها النحيفة فيُثار هو الرجل، فتميل عليه بدلالٍ هي الأنثى، لتريه منبت ثدييها الممسوحين، وحين يراهما ممسوحين ذوا حلمتين حولهما سوادٌ دائم، يحلق .

ستدور حول المكتب وتمرر أصابعها على رقبته وظهره فينظر داخل عينيها، ويُرَيَل، ثم يفسح لها مكانًا فتجلس على حجره .

يمد يده من تحت جيبتها القطنية الخفيفة ويمررهما على فخذيها الضامرين بجلدهما المليء بالبثور، وحين يقترب من عانتها سيكتشف الحقيقة القديمة التي اكتشفتها أثناء علاقتنا، سهام لا ترتدي لباسًا أثناء لقاءات العمل الهامة، فيضع يده على عانتها بشعرها النابت شوكًا رغم النزع المتكرر، ويمسك بيده مؤخرتها الممتلئة دون اتساق، تلك هي المرة الأولى التي سيضاجع فيها امرأة كل أنوثتها مؤخرة.

ستنزل عن حجره بدلالٍ مبتذلٍ وتضع رأسها على صدره ثم تبتعد، وتميل على رأسه بشعرها القصير الخشن رغم الفرد المتكرر، لتقبله.

عندها سترى قصتي المطبوعة موضوعة على مكتبه، وتقرأ الاسم فلا تعرفه، ستمر عيناها على أولِ السطور وتربط للمرةِ الأولى بين الحازمين.

بجوار المكتب ستقف وتخلع جيبتها بسَلْتِها مرة واحدة، ثم تستلقي على المكتب رافعة ساقيها فاتحة فخذيها قائلة :" أنا عارفة صاحب القصة "، فيدخلها وهو يسأل :" مين هو ؟"، فتنهج طالبة منه الإسراع، ثم تقول :" كان مصاحبني "، وتقبض على منبت قضيبه ليقذف أسرع.

وبينما يقذف سيسألها " ولما يعرف إني باخد قصصه هيعمل إيه "، وأسفلهما قصتي المبتلة بمائه وبمائها، وتضحك وهو يخرج منها قائلة " حازم ده مرخي وأهبل "، ويقهقهان وهما يرتديان ملابسهما، ويمسحان بقصتي بللهما عن المكتب.

بعد يومين اتصلت بها للمرة الثالثة، فأفادوا بانتقالها للعمل في مكتبه، ففرحتُ لصحة توقعي وسعدتُ لكسبي رهاني مع نفسي، هكذا دخلتْ سهام سيناريو مرسومًا لعاصم دون رغبة مني لكنها اتبعتْ الخط المرسوم لها في عقلي .

وحين أدخل سهام إلى مكتبه، أحكم عاصم ثابت الخناق على نفسه دون أن يدري أنّ كل ما حوله صار مدموغًا بدمغي .

حازم

أو وانتهت كل الحكايات[٧]

٢٥

حين وصلتني رسالة منى كانت تلك فرصتي لأكون آخر، صنعته ولم أكمل المشوار فتاه مني ثم عاد إلي، ولأُكوِّن آخرًا، أصنعه على شاكلتي فيصيرني دون أن أصيره، بدلًا من البحث عن شبيهي جاءتني الفرصة لصناعة شبيهي .

---

[٧]جرت العادة في الرواية المعاصرة، وبخاصة المكتوبة في العقد الألفيني، أن يضمن الكاتب روايته وثائقًا حقيقية وإسقاطات على الواقع.
ولأن الكاتب، مضطراً، يكتب هذه الرواية في عقد بداية الألفية، طالما لم يأت عقد العشرات بعد، فقد اتبع هذا القانون، ويمكن اعتبار المقاطع الثلاثة القادمة وثائقًا ونقدًا اجتماعيًا .

وبعد نشر قصتي الأولى الساذجة، نشرت أخرى لم يأخذها عاصم عني كانت صدامًا طفوليًا سريعًا مع مزاج قراءه، تحكي عن جارين، فتاة وفتى ممنوعين من الكلام معًا، كل متعتهما الالتصاق سويًا أثناء رحلة المترو إلى الجامعة .

كان علي أن أشابهه لأجعله يشابهني، ثم أفعل بقصصي وأفعل به ما شئتُ، درجة درجة نصعد السلم ثم نفجر البالون الأكبر.

وكما يريد قراءه كتبت، فجاءتْ الثانية.

"

ابتسامة

على صفحة السماء سطعت الشمس ومدت أشعتها فنفذت إليه متسللة من خلف الشجرة التي رحل عنها الشتاء، فبان على أغصانها وريقات وفروع لينة لم تلبث أن انثنت، تساقطت عليه الأشعة الذهبية وهو تحت التعريشة بأغصانها الخضراء الملتفة المتشابكة، فبان في عينيه شمسان بلون الذهب وتكسرت على أهدابه آلاف الشموس بلون الذهب.

رفع رأسه قليلاً وأسند ظهره على الكرسي الخشبي ذي القاعدة الخضراء والمساند الخضراء، وقارب ما بين حدقتيه ليتفادى ضوء الشمس، ومد بصره على صفحة العشب الأخضر وكانت الخضرة خضراء نضرة، وكانت هناك زهور تتفتح وقطرات ضوئية تتشكل على أوراق العشب، وطائر مغرد أغرته نضارة العشب فنزل .

مد بصره إلى الأمام فرأى قطيطات صغيرة تمرغ على أشعة الشمس وخضرة العشب وتفرد سيقانها وراحات أقدامها فتظهر بواطنها بخمسة أظافر منثنية، رفع رأسه عاليًا ونظر إلى زرقة السماء وصفحة السماء وسحب السماء، فشكلها أفراسًا ذوات أجنحة وغزلانًا رشيقةً ومهاً بعيون واسعة، وعبر بيده المشدود جلدها على شعره الأسود الفاحم ومر على لحيته الحليقة واستقر بيده تحت ذقنه ونظر إلى عين الشمس الذهبية وابتسم .

*****

على صفحة السماء جاهدت الشمس لتتسلل من خلف السحب الرمادية، وابتل كرسيه من أثر المطر، وأتاه رسم الشجرة التي أتاها الشتاء فغابت أوراقها وتساقطت فروعها اللينة وبانت أغصانها الجافة فارغة، تساقطت عليه حبات المطر ومن فوقه التعريشة خشبها خاوي.

نزل برأسه وأسند ظهره المحني على الكرسي الخشبي بقشه الخارج من قاعدته المتآكلة، وعدل من وضع نظارته السميكة على أنفه ومد بصره على صفحة العشب المتقطع بعضه الذابل بعضه، والأرض الطينية التي ملأتها برك أمطار الصباح، وكان المدى أبيض والريحان الشتوي نابت والطيور الهاربة خالية منها الأجواء .

مد بصره العجوز فرأى قطة عجوزًا أغراها رحيل المطر بالخروج من مكمنها فسارت نحوه، واستلقت تحت قدمه العجوز لتستدفئ بجسدها النحيل العجوز، أحنى رأسه وتأمل بقع الطين من تحته ومر بيده بجلدها المكرمش على صلعته الأمامية وعلى شيبه الخلفي وعلى لحيته الطويلة البيضاء .

وضع راحة يده تحت ذقنه وأسند مرفقه إلى ركبته، وأغمض عينيه وابتسم .

"

وصفية شفافة، رومانسية حالمة، خرائية بامتياز كما يريد قراءه، نشرتها فنشرها من بعدي دون تأخير.

تابعت التعليقات فألهمتني خطوتي القادمة، قال أحدهم أنها تشبه قصصه القديمة دون تجديدٍ يذكر، فأمنّ على قوله بعض القطيع المعلق .

لتكن القصص القادمة مختلفة، لا تشبه أختٌ أختها، كتبتُ واحدةً ثم انشغلتُ بتيه اختفاء جيجي وتيه البحث عنها، وغبت عن نشرها فترة ثم أطلقتها، ساخرةً بها بعض تجديد في الأسلوب .

"

ربنا يعوض عليا

جلس / جلست / دخن / ضحكت .

دخلا / استلقت / نام / نخرجت .

جلس على مقعدِ الصالة ومد ساقيه وخلع الحذاء، ومد ذراعيه وخلع القميص المبتل بعرق العمل، فبقى بالفانلة ذات الحمالتين.

جلست، في ثيابها المنزلية، ورفعت ساقيها عن الأرض، وثنتهما من تحتها فتربعت .

من جيبه أخرج علبة سجائره، وأشعل واحدةً ونفخ دخانها في وجهها فضحكت، مد ساقه إلى ساقيها وداعب بإصبعه الأكبر ركبتها فازداد ضحكهما وقاما.

فتحا الباب ثم دخلا، بيدٍ واحدةٍ خلعت الجلباب المنزلي وبالأخرى عدلت من وضع السوتيان، واستلقت مسترخية على السرير.

رقد بجوارها وأراح على صدرها رأسه المتعب، فسرى التعب من رأسه المتعب إلى جسده المتعب، ونام بجوارها بعد أن هده التعب .

قامت وتناولت جلبابها وأدخلت جسدها سريعًا داخله، وخرجت .

أمام الباب الموارب وقفت وتنهدت، شمت رائحة محشي الكرنب يشيط فرفعت بصرها إلى السماء وقالت " ربنا يعوض عليا في الكرنبة " .

"

دون تعديل يذكر نشرها، صار تشابهنا حتمياً، عليه أن يقبله بالكلية أو يرفضه بالكلية، قال قراءه أنها مجددةً فابتهجت وقررت زيادة اللعب، أصبحت أميل إلى دفع السيناريو دفعًا لذروته ثم إنهاءه، طال أكثر مما يجب وأنا سريع الملل .

مشكلتي أن أسلوبي يشبه أسلوب الجميع، ولا أحد يلحظ سوى تأثير الأساليب الشهيرة، هكذا فكرت في كتابة قصة تبدو فيها بصمة كاتب معروف واضحة لينشرها عاصم من بعدي فيشير لها الآخرون قائلين :" هذا فلان، وهذا أسلوبه " .

من بين كل من قرأت لهم اخترت يحيى الطاهر عبد الله، فأسلوبه أكثرهم شهرة وأكثرهم تميزًا وأسهلهم تقليدًا في الوقت نفسه، وجاءت قصتي الرابعة .

"

حرقة الخمر

في الصباح استيقظ على حريق في جوفه جراء ما عاقره في المساء من الخمر، فنزل عن سريره وجرى عبر الصالة الفارغة وتعثر في بعض زجاجات الخمر الفارغة، فسري في الشقة الفارغة صوت ارتطام الزجاجات الفارغة على الأرضية الفارغة، وعاوده الصدى .

فتح باب الثلاجة ومد يده، وصب لنفسه من زجاجة على جدرانها شبورة قليلاً من الماء، فنزل في جوفه الفارغ وحلقه الناشف ماء النهر، فأطفأت برودة ماء النهر حرقة الخمر، ورجع برأسه إلى الوراء وتجشأ.

وصل إلى الشرفة وجلس في الشرفة وأراح قدميه على كرسي الشرفة ومد ذراعه على طول الشرفة، وأشاح ببصره فرأى زرقة السماء وبياض السحب التي تجري على صفحة السماء، فأرجع البصر ونزل بالبصر فرأى بائع الفول في عرض الطريق يجر عربته، وسائس الجراج يصب الماء المصبن من دلوٍ حديديٍ ليغسل للسيد عربته، وبائع

الأنابيب يقذف للنسوة الواقفات الأنابيب من عربته، ورجع برأسه إلى الوراء ثانية واسترخى.

عاودته حرقة الخمر فتكاسل عن المشي عبر الصالة ليحضر ماء النهر ودلى ذراعه المستند على سور الشرفة إلى أرضية الشرفة، وألتقط زجاجة ممتلئة حتى نصفها برخيص الخمر وصب في جوفه قليلاً من الخمر ليطفئ به حرقة الخمر، ورفع رأسه ثانية ليرى صفحة السماء وزرقة السماء والسحب البيضاء الجارية على صفحة السماء وهوائيات الإرسال على الأسطح المقابلة ووصلات الدش .

أسند رأسه إلى الوراء مرة أخرى وأغمض عينيه وفي جوفه حرقة الخمر وفي رأسه لطشة الخمر فصب في جوفه بعضًا من الخمر ليفيق من سكرة الخمر، وانتصب قابضًا بكلتي يديه على سور الشرفة، واهتز جسده وتلوى ومال جذعه إلى الخلف ومال جذعه إلى الأمام وأراح على السور صدره المتعب، وخرج من فمه قيء الخمر مخلوطًا بدم الخمر، فاتسخ غسيل أم محمد في الشرفة التحتية.

جرى عبر الصالة وتعثر في زجاجة فارغة فسقطت، وسري في الشقة الفارغة صوت ارتطام الزجاجة الفارغة على الأرضية الفارغة وانشغل بتعبئة ماء الصنبور فلم يسمع الصدى، وجرى عبر الصالة إلى الشرفة وأسند الدلو إلى سور الشرفة وسكب الماء على

غسيل أم محمد في الشرفة التحتية ورجع بظهره فسقط على أرضية الشرفة واصطدم رأسه ببلاط الشرفة وتكاسل عن النهوض، تناول زجاجة الخمر وأحتضنها ثم استغرق في النوم .

"

ودون تعديل يذكر نشرها عاصم من بعدي، وكانت بصمة يحيى الطاهر واضحةً فلوحظت، علق أحد قراءه عن التطابق الكامل مع أسلوب يحيى فعارضه بقية القطيع الأحمق قائلين إنها دلالة التنوع الأسلوبي للكاتب، فضحكت وتعجبت من أين يأتي الحمقى بكلماتهم .

تعليق لقارئ قديم لفت انتباهي، قال إنها المرة الثانية التي ينشر فيها عاصم قصة تتعارض مع قيمنا الدينية الحنيفة، في المرة الأولى جنسًا وفي الثانية خمرًا، وعليه أن يعود سيرته الأولى المحافظة.

صار اللعب ممتعًا وأصبح المسرح جاهزًا للضربة الكبرى والانسحاب من بعدها، وإنهاء سيناريو عاصم لأبدأ سيناريو جديد .

آنذاك خرج عادل من سجنه فشغلتني مراقبة سذاجاته عن إطلاق البالون الأخير في سماء عبثي .

٢٦

دون وداع تركني عادل وحيدًا، وحرمني من متابعة جِدِيَته الساخرة .

عدت إلى قصصي وكتبت الخامسة .

جاءت أكثرهن عبثًا، مفككةً تفكيكًا شديدًا، منقول بعض سطورها، نشرتها فتأخر عاصم في أخذها من بعدي، كان يخشاها .

فكرتُ في كتابة أخرى وقبل أن أفعل، عاد فنشرها .

"

كولاج واقعي

حين رأى هو المعلق على سلمٍ يمسكه بين فخذيه، ويروح به يمنة ويسرة ليُعَدل من وضع حبال الصوان الكبير، بعضًا من بذخ أصحاب العزاء، سقط من علٍ.

نزل على أمه الأرض عليه سلام الرب وسلام العبد وجروبي وقويدر، صعدت روحه وجرى جسده .

******

ليل خارجي / شوارع القاهرة / ١٥ يونيو ٢٠٠٨

ريا وسكينة تطلب موظفين

عبارة مكتوبة على الكرسي الخامس المزدوج لأتوبيس ٩٤٥ خط مساكن عين شمس-جامع عمرو.

******

سار خلفها وليد في طريق دمشق، سمعت خطاه خلفها فابتسمتْ، وقال لها قولاً ليناً فابتسمت، ثم استدارت، رأته قزمًا فكشرت، غضب وليد من فعلها فدعا عليها، سمعه الملاك الأبيض فغضب لغضبته.

عبرت الطريق وتعثرت قدماها حين دفعها الملاك، سقطت على الأرض واتسخ بنطالها الجينز، قال لها وليد :" أحسن " .

******

" فلنكن أصدقاء (وقفة) لقد جئت متأخرًا، اغفروا لي (وقفة) الوجه (وقفة) على السلم (وقفة) اغفروا لي (وقفة) "[8]

******

حين جرى جسده استوقفه منظر الحوانيت المغلقة، ولمح حلمًا ملحًا، محلاً حمل لحمًا، فأخذ نخذًا معلقًا، وشرخ وبرخ، ووصل إلى منزله سلق اللحم وطعم المرق .

عندها قال الملاك الأسود للملاكِ الأبيض " إني نازل إلى الأرض غدًا "، فقال له رهط الملائكة من حوله " لا تنزل "، فلم يطع أمرهم ونزل، خطفه الرجال السود غلاظ القلوب وطالبوا بالفدية .

لكنه ما خالف أمرًا، " والله ما خالفت أمرًا " قال لهم، فقالوا إن الخيار ضاجع البندورة بعدما قطعهما الملاك الأسود طرنشات مطرنشة رغم نهي الرسول عن عمل السلطة .

******

[8] صمويل بيكيت – مسرحية كلمات وموسيقى – ترجمة د.نادية البنهاوي .

" ماذا (وقفة خطابية بطريقة متكلفة جدًا) هل الحب هو الكلمة (وقفة . دو) هل الروح هي الكلمة (وقفة . دو) هل نحن نعني الحب عندما نقول الحب ؟ (وقفة . دو) الروح، عندما نقول الروح "[9]

****

" وأحب أن أرى نفسي خالقًا ولست مصنوعًا "

من كلمات أديب الشباب محمود عبد الرازق عفيفي المكتوبة على السور الحجري الداخلي لمترو مصر الجديدة .

****

و إلا فقل لي بربك من أكثر عبثًا؟، محمود عبد الرازق عفيفي ملك علبة الدوكو الحمراء، الخطاط المعتمد لجدران مترو مصر الجديدة أم أولئك الذين شطبوا عنوان كتابه (هذا قرآني) دفاعًا عن القرآن .

****

حين جاءهم الخبر بخطفه قال الملائكة قولهم ونزلوا لينقذوا الملاك الأسود فلم يلحقوا به، تلا عليه الملثمون الآيات من فورهم وسموا باسم الله ثم ذبحوا .

---

[9] المصدر السابق .

صعدت روح الساقط على الأرض فقيل ادخل النار هذا جزاء المنتحر .

واحتجز رجال القاعدة في بلاد الرافدين الملائكة الذين هبطوا لأنهم يعملون السَلَطة .

"

وفي الليل تابعت التعليقات عليها، قرأتُ فبهتُّ، مال هؤلاء القوم لا يفقهون روح الفكاهة؟ .

قال قارئه القديم أن عاصمًا قد بلغ ذروة تهتكه، ولم يكفه الخمر والجنس، فتعرض للملائكة .

وقال قارئ ثانٍ أنّ بالقصة ما يعد تعريضًا بالكتاب والسنة واستهزاءً بهما، وقال ثالثٌ أنّ بها ما هو إنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة، أعدتُ قراءتها فلم أدرِ ما هو، كان كل واحدٍ منهم يخرج ما بداخله متنطعًا دون أن يدرِ قولَ من قبله ودون انتظار قول من بعده .

في اليوم الثاني كان عاصم قد فُسِق وكُفِر، وفي الثالث التقط الخيط موقع وجريدة إلكترونية، وفي الرابع وصل الخيط إلى داعية فضائي لجعل عاصم وقصته موضوع برنامجه .

وعلى مدار الأيام التالية ثارت مسالة عاصم ثابت، وصارت قصتي الخامسة ملء السمع والبصر .

ذات يومٍ كتب أحدهم " إن دفاعنا عن حق عاصم ثابت في حرية الإبداع الفني لا يعني أبدًا تقديرًا فنياً للقصة محل الجدل، فهي مفككة وغير مفهومة، وبها سطور منقولة عن صمويل بيكيت دون إشارة للمصدر بما يعد سرقة أدبية، وإن كانت غير مقصودة "، قال ذلك فأخرسه الآخرون وقالوا قولهم، لا صوت يعلو على صوتِ معركة حرية الرأي والإبداع، كان المسرح قد نُصِب، وكانت الأقنعة قد لبست، قليلون هم الذين قرأوا القصة من الطرفين، كثيرون هؤلاء الذين وجدوها فرصة سانحة للدعاية لأنفسهم وأداء وظائفهم وممارسة ألعابهم الجادة في فرض سيناريوهاتهم المسبقة .

حين ذلك كان عليّ إنهاء السيناريو الخاص بي والانسحاب من اللعبة، والارتكان إلى ما يعصمني بعيدًا قبل أن يمارس الآخرون هوايتهم الدائمة في تعذيبي بإفساد سيناريوهاتي وحرمي من حقي في متعة اللعب .

دومًا ما فرضت علي سيناريوهات نفذتها دون سؤال عن واضعها، لكنني الآن أرغب في الانسحاب السريع .

٢٧

حين قمت عن سريري في الصباح عقدت العزم على طباعة القصص الخمس التي كتبتها، والقصص الأسبق التي كتبها حسابي والاشتباك النهائي ثم الانسحاب .

من شباكي نظرت إلى برج الكنيسة وخاطبت الناقوس فلم يجب، ورأيتها ساطعةً ساطعةً، في الأيام الأخيرة كنت أراها ساطعةً ليلاً ونهارًا وكنت أرى البدر مكتملاً ليلاً ونهارًا، ولم أرهما أبدًا مجتمعين .

درت حول سريري دورتين وتأكدتُ ألا أحد معي وخرجت من غرفتي وأغلقت بابها جيدًا، ودرت في شقتي دورتين وتأكدت ألا أحد معي وأغلقت بابها جيدًا ثم نزلت .

طبعتُ القصص وتلفتُّ حولي وتأكدت ألاّ أحد يتبعني ثم مضيتُ.

أبلغتُ منى هاتفيًا، جاءني صوتها حزينًا، سألتها عن السبب فقالت أنها مكتئبة بسبب حذف نص مقالٍ ترجمته بدعوى أنه إباحي، تلك المرة لم تكن جديتها مثيرة للضحك، كانت تدافع عن حقها في ألا يفرض عليها الآخرون سيناريوهاتهم، واسيتها وطلبت زيارتها فوافقت.

وعاودني سؤالي الأبدي حول أحقيتي في إنهاء سيناريو لم أكن فيه اللاعب الوحيد وتركت الباب مفتوحًا للاعبين آخرين غيري، كان ذلك تساؤلاً قديمًا سأله آخرون قبلي ولن أكون صاحب أول إجابة، قبلاً فعل ذلك جوزيف ترانسكي مع سيمون في فيلمهما الشهير الذي قام ببطولته آل باتشينو، حين أنهى دور سيمون فجأة بعدما صنعها على شاكلته، وكذلك فعل خوسيه كارلوس هيريرا المخرج المكسيكي الشهير مع ممثلته المفضلة وزوجته خوانيتا دي لويس هرنانديز، حين أنهي سيناريو فيلمها المشترك **Los Humbelos**، وهو معالجة لرواية فيكتور اوجو الشهيرة (البؤساء)، دون أن يبلغها بذلك، وكانت القاعدة أن من يملك حق البدء يملك حق الإنهاء .

أقرب الحالات إلى حالتي، حالة من يبدأ سيناريو بفكرة أولية بسيطة دون نص كامل محكم، ويفتح الباب لكل الاحتمالات الأخرى ويترك لممثليه حرية الاختيار المطلقة، هي حالة من يضع مكعبًا أولاً في بناءٍ ما ويترك المكعبات الباقية ليضعها أي عابر، فهل من حق اللاعب الأول أن يهدم بناءً لم يكن بانيه الوحيد، وهل تسري عليه قاعدة أن من يملك حق البدء يملك حق الإنهاء.

أثناء بحثي عن إجابة لتساؤلي عثرت على قصة غريبة لحادثة لم تجذب انتباه أحد، حدثت تلك الحادثة في مدينة الإسكندرية في أواخر يناير ١٩٥٢ أي بعد حريق

القاهرة ببضعة أيام، حيث قام أحمد محمود جاب الله بقتل سلمى سالم القهوجي بدعوى خروجها على النص الأصلي للسيناريو، ولولا رجوع صحفي يوناني إلى تناول القضية لكانت سجلت ضد مختلٍ عقلياً وصارت بعد ذلك نسياً منسياً.

كان ذلك الصحفي ويدعي تريستانوس كونستانتينوبولو يعمل في جريدة سكندرية أسبوعية تصدر باللغة اليونانية اسمها **Heleneka**، ترجم بعض أعدادها أحد اليونانيين المقيمين في مصر وأتاحها على شبكة الإنترنت، كتب ذلك الصحفي سيرة شخصية مختصرة لأحمد محمود جاب الله قبل قتله سلمى سالم القهوجي، ونشرها على حلقتين متتاليتين في خريف عام ١٩٥٢.

ويحكي تريستانوس أن أحمد جاب الله كان قد سافر إلى إنجلترا في بعثة لمدة سنتين لدراسة المسرح، وسافر بعد إنهاءه البعثة إلى ألمانيا وعاش بها لمدة سنتين آخرين وهناك تأثر بالاتجاه البريشتي (وكان غير معروفٍ في مصر في ذلك الوقت)، وعندما عاد أحمد جاب الله قرر صنع مسرحية مفتوحة يطور ممثلوها أحداثها بأنفسهم ويعطون في ذلك حرية اختيار مطلقة مقابل أن يكون للمخرج حق إنهاء المسرحية وقتما يشاء وكيفما يريد، وكانت الفكرة الأساسية أن يجعل سلمى القهوجي شبيهةً له لتصبح تجسداً حياً

لفكرة كامنة في ذهنه، وأن السيناريو تطور إلى الحد الذي صارت الطريقة الوحيدة لإنهائه هي قتل بطلته.

ودافع تريستانوس عن حق أحمد جاب الله في إنهاء السيناريو بالطريقة التي يرتأيها لأنه صانعه، وعن حقه في قتل سلمى سالم لأنه صنعها على شاكلته، ومن يصنع شيئًا يصبح من حقه إفنائه.

وبعد شهر من نشر مقالتي تريستانوس كونستانتينوبولو نُشر مقالٌ آخر لأليكسيس ديمتريوس أستوريانوس عارض فيه رأي كونستانتينوبولو، بدعوى أنه ليس من حق أحمد محمود جاب الله إنهاء سيناريو لم يكن اللاعب الوحيد فيه وإن كان اللاعب الأول، ولو أراد منذ البدء لجعل ممثليه مُصَيرين بالكلية ولنزع منهم حرية اختيارهم، وطالما أعطاهم حرية اختيارهم فقد صاروا مثله يعرفون مثل معرفته وليس من حقه محاسبتهم على أفعالهم .

وبعد ذلك بعددين أرسل ياني جورجي ميخايليدس مقالاً قال فيه أن أحمد محمود ارتكب جرمًا بقتله سلمى سالم القهوجي لأنه لم يمنحها حياتها، بينما كان من حقه إنهاء السيناريو، حتى وإن تركه مفتوحًا لخيارات أخرى، لأنه صانعه واللاعب الأول داخله.

طوال تلك المناقشات لم يشتبك أحدٌ من المصريين مع الحادثة، لكني عثرت بعد ذلك على ترجمة لمقال طويل في نفس المجلة، كتبه صحفي مصري يدعى محجوب محجوب، كتب عن القضية يقول أنه بعدما سمع بها زار مرتكبها في محبسه، ووجده شخصًا كامل العقل وهادئ الطباع، وبسؤاله عن دافع ارتكابه للجريمة أجاب بأنه كان يبحث عن إجابة لتساؤل قديم لديه حول أحقيته في وضع الآخرين في تجربة وإنهاء التجربة وقتما يشاء، وأنه منذ ولد يرغب في صناعة شبيه له على شاكلته ليحيا حياته الأخرى التي لم يستطع أن يحياها .

لم يكن عاصم ثابت شبيهي إلا بالقدر الذي جعلته يشابهني به، وربما لو طالت العلاقة بيننا لكان هو قد أصبح أنا أو أنا قد أصبحت هو، كل إنسان يحمل قدرًا ما من الصفات العامة يركبها كيفما شاء ليصنع تشابهه مع الآخرين ويصبح على شاكلتهم .

ومضيت أمشي وبداخلي تساؤلاتي حتى وصلت المقهى، ثم انعطفتُ إلى ركني وقبل أن أطلب قهوتي وجدتُ الركن مزدحمًا، جلستُ وعلى شاشة التليفزيون ظهر عاصم ثابت ضيفًا على برنامج حواري، ودافع عن نفسه ضد تهمة ازدراء الأديان وحلف بإيم الله أنه مؤمن تام الإيمان ولولا الملامة لربى الزبيبة، كان يضغط على أزرار تشابهه مع الآخرين كي يعاودوا دمجه بينهم، أنهيتُ قهوتي ثم مضيت .

أكثر ما يؤلمني أن أشارك في صياغة سيناريو مُعادٍ يقف فيه الكاتب الكبير ليعترف بأنه صوام قوام وأنه ولي من أولياء الله الصالحين المخفيين، بدلًا من قوله أنه يأكل ويشرب ويعيش ويذكر الله حينًا ويسكر أحيانًا ويشرب الحشيش، وإذا ما أستبد به الغضب صاح " يلعن دين أم كده " .

ومن خلفي سمعت صوتًا يردد " استغفر ربك يا أخي "، فألتفتُّ فإذا لحية تصدمني وزبيبة تفقأ عيني، وجلباب قصير تفوح منه رائحة العطر الدهن ورائحة العرق الذكر .

- لا تجسسوا يا عم الشيخ .

صحت في وجهه .

- لا تجسسوا !!! بتسب دين ربنا وكمان بتقاوح .

صرخ في وجهي .

- وإنت ما تتجسش عليا .

علا صراخي والتحمنا كما يلتحم الجميع، أولئك الجميع الذين يؤدون أدوارهم باقتدار ويعتبرون أن من حقهم التدخل في وسوستي ليصنعوني على شاكلتهم .

من وراء حجاب مد يده ودفعني في صدري دفاعًا عن دين الله، ومن وراء حجاب دفعته في لحيته التي تخفي صدره كي أصيب صدره، دفاعًا عن حقي في الوسوسة، ودفعني ودفعته وصرخت فيه وصرخ فيّ حتى فض من يفض.

انتحى بي جانبًا قائلاً " أنت سبيت الدين، أنا سمعتك "، وضحك مستهزئًا " روح ربنا يهديك " ومضى .

ومضيتُ ومن خلفي ضحكات الجميع ودعواتهم لي بالهدى، الجميع الذين لا يعتبرون أن من حقي الحياة بعيدًا عن سيناريوهات يرسمونها لي ويفرضون عليّ اتباعها لأصبح على شاكلتهم، أؤمن عندما يؤمنون وألحد عندما يلحدون، يطردونني من بيتي لأني أسهر على ترعةٍ ويعاودون طردي لأني أدخن وهم لا يدخنون.

نظرت فإذا من خلفي لحى تضحك وأسوكة تضحك وجلابيب بيض وجلابيب سود وأصوات تدعو " ربنا يهديك "، فصحت بغضبٍ " روحوا ربنا ياخدكم "، وتصاعد الجري من خلفي ردًا على دعائي .

عدوٌ شديدٌ وركضٌ أشد وأنا أجري ومن خلفي مصلون في جلابيب ومصلون في بناطيل ومصلون في عباءات يجرون في أثري، عدوت أسرع فعدوا من ورائي، حتى وجدتُ ركنًا فاختبأتُ .

من مخبأي شهدتُ ثلاثة في المقدمة يجرون ومن خلفهم الجمع الثائر، ونعش لميتٍ محمول وحجارة داخله وحجارة خارجه وحجارة يقذف بها من يجرون على من يجرون أمامهم .

أمنتُ على نفسي من غضبة المصلين فجذبتُ أحدهم وسألته، أجابني أن ثلاثة دخلوا عليهم المسجد بنعش وقالوا لميت فردد الجمع أن إكرام الميت دفنه والصلاة عليه، فردوا عليهم أن الميت عليه دين فسأل الجمع عن قيمته فقالوا عشرة آلاف، ولما كانت الصلاة عصرًا والتجار حضور جُمع المبلغ، وصلوا على الميت، ولما سلموا لم يجدوا الثلاثة ووجدوا النعش مملوءًا بالحجارة وكان ما رأيته .

عندها رجعت إلى بيتي أحتمي به، دخلت من الباب وتلفتُّ حولي حتى أمنتُ ألاّ أحد معي، ثم دخلت إلى الحمام وعدتُ إلى الصالة فلم أجد القصص، نظرتُ إلى الطاولة الخشبية وبحثتُ عنها تحت أوراقي وأقلامي وكتبي القديمة وكتب عادل وملابس سهام، فلم أجد شيئًا .

نزلتُ تحت كنبة الصالة أبحث عنها فلم أجدها ومن خلفي لمحت ظلاً، طاردته حتى المطبخ فهرب مني إلى غرفة نومي .

جريت خلفه وعند سريري وجدته، التفتَ إليّ ثم عبر جسدي واختفى فسقطتُ على الأرض .

٢٨

فتحت عينيّ، وجدتُ نفسي مستلقياً على سريري، وآخر ما أذكره أني كنت مرمياً على الأرض بعدما أخذ مني الطيف القصص .

ألفيت روحي على وضعي المعتاد، رأسي ناحية حافة السرير الخشبي الواطئ وقدمي ناحية الشباك الصغير المفتوح على برج الكنيسة والناقوس .

نظرت إلى البرج فأخذ شكله يتغير، صار مربعًا أعلاه قبة مخمسة رمادية غامق لونها، مسننة على الطراز القوطي وتحتها ساعة سوداء دائرية دون شرط حولها،قارب عقرباها على الانطباق، والوقت نهارًا ليلاً وليلاً نهارًا، نهارًا ليس بليل وليلاً ليس بنهار، وقت بين الوقتين ومنزلة بين المنزلتين .

يغمز البرج ناحيتي، يناديني فلا ألبي، حتى أنطبق عقربا ساعته السوداء فجذبني، صعدت في ضوء حلزوني وعن يساري مسقط رأس القبة، درت دورتي الأولى صعودًا، وضاق ما بيني وبين مسقط الرأس، وأملي عليّ شيء لم أتبينه، درت دورتي الثانية وفتح عن يميني باب، طاردني فهربت منه، في دورتي الثالثة ضاق ما بيني وبين

الباب عن يميني، وضاق ما بيني وبين مسقط الرأس عن يساري، فسقطت عن يساري وغبت.

حين فتحت عينيّ رأيتها كما رأيتها قبلاً، شكلتها بشكلٍ مختلفٍ فلم تتشكل، استراحت في مجلسها ومدت لي قدمها فسألتها :

- نورا إنتي عايزة مين ؟ .

وانفعلتُ بشدة .

- عايزاك إنت طبعًا .

ردت بابتسامة هادئة، ومدت يدها لي بقصصي التي أخذتها من رسولها الذي أخذها من بيتي، فلم أمد يدي لآخذها .

- أنا مش عارف، أنهي حازم فينا .

وطوت تحت إبطها القصص فاختفت .

- نورا إنتي عايزاني ولا عايزة كتابتي .

ضحكت ولم ترد، أعدتُ سؤالي وسمعته، كان دراميًا فضحكتُ مرةً أخرى فضحكتْ هي الأخرى وقالت لي :

- هترجع لي تاني وهابقى أقولك .

وتركت لي قدمها كما في المرة السابقة، واختفتْ فعدتُ إلى غرفتي.

داعبت الورقة القديمة ذات السطور المطلسمة المتشابكة جيبي وتراقصتْ بداخله، أخرجتها منه، فتحتها، خف التفاف سطورها المطلسمة الدائرية وبانت فيها حروفٌ متناثرة لكنها مقروءة.

أغلقتُ شباكي الصغير، ورغم إغلاقه بانت الغرفة مضيئة بنور الشمس، وبدت جدرانها زيتية بطلاء مقشر.

درتُ في غرفتي دورتين، تأكدت أني وحدي وألاّ أحد معي يراقبني .

أزحت دولابي القديم ونظرتُ خلفه، تلك رسومي التي لم أرها لأحد أبدًا خشية أن يفسدها الآخرون، في منزلنا القروي كنت أرسمها وحين تأتي أمي لمحوها وضربي بعد المحو،كنت أنسبها لأخي الأكبر فتضربه، حتى هو المجنون المقعد كان يفسدها ويضيف إليها رسومه.

على حائطي ذلك الرسم القديم لعمودٍ طويلٍ صاعدٍ حتى السماء، وآخر ملوي نازل من السماء، وشبابيك بقضبان حديدية وخطوط دائرية وخطوط مبعثرة وخطوط وخطوط.

أضفتُ إليها رسمي الجديد وأعدتُ الدولاب القديم عليها لأخفيها عن الآخرين، كان موعد زيارة مني قد أقترب، هيأتُ نفسي وغلقتُ الأبواب ثم نزلت .

(حين أراها سأضمها بشدة، ذلك ما تحتاجه منى في اكتئابها الحالي، ثم عضة شديدة خلف رقبتها تمزق جلدها، أمص دمها فتنسى إكتئابها وتنتعش .

(كل جنس سادي ولو أنكر بالقول ممارسوه، في البدءِ كان العنف ولا شيء معه .

قال قائل مجهول في الكاماسوترا : كل مكان قابل للتقبيل قابل أيضًا للعض، وقال قائل مجهول مثلاً قديمًا سائرًا : ضرب الحبيب زي أكل الزبيب .

في البدء كان البقاء للأصلح وكان قانون الانتخاب الطبيعي بدائيًا، فكان البقاء للأقوى والأكثر عنفًا، اقتل .. تركب ليعش نسلك، وفي ارتباط شرطي بسيط ارتبط العنف بالجنس فصار حتى العنف وحده مصحوبًا بلذة جنسية)

كل ما تحتاجه منى مني عناقًا قويًا بعنفٍ شديدٍ أترك به علاماتي على جسدها فتفتخر في سريرتها أن ذكرًا قويًا مر من هنا وتنسي اكتئابها، لو قبلتها بهدوء ستذوب كقطعة كراميل فرنسية ثم تستلقي مستسلمة، ولو استمر فعل الحب بيننا رومانتيكيًا سيفتر ويصبح ممارسةً أحاديةً من جانبي، عندها يأتي العنف ليصبح فعل الحب ثنائيًا متبادلاً).

فتحت منى الباب وبدت مختلفة، بان في عينيها اليسرى حولٌ طفيفٌ لم ألحظه من قبل، احتضنتها وطبطبت بيدي على وسطها، صارت بطنها ممتلئة ووهبها اكتنازها القصير ربربة أنثوية في خصرها .

أجلستني في الصالة ودخلت إلى غرفتها، عبرت أمام مرآتها فبان على إطار المرآة نونان منطبقان داخلهما وشم رأيته قبلاً ولا أذكر أين ولا متى؟، كرأسي عنقاوين متعاكسين ملتفين حول بعضهما يلفهما شجرٌ شائكٌ وبينهما حروف متقطعة .

على زجاج المرآة كتابة تبدو كانعكاس لكتابة داخلها، وتبدو الكتابة داخلها كانعكاس لكتابة أبعد، قرأت السطور كانت أبياتًا بالفرنسية

Le routes derrier

Il a commencè à marcher ciseaux

L'impact de future dè couvertes

Tristan tzara[10]

---

[10] لقد طوينا الطرقات
وراحت المقصات تمشي
على وقع الاكتشافات المقبلة
تريستان تزارا

سمعت خطوها آتية، وبان على سقفها حروف ملتفة مربوطة ببعضها، ومن النافذة دخل ضوء البدر فأضاء الصالة بضوءٍ أزرق، وبجانبي ظهرت طاولة خشبية مستطيلة .

وصلت منى بجانبي فضممتها، وتحسست بيديّ طرف جيبتها القماشية الخفيفة، أدخلت أصابعي تحت بلوزتها الخضراء القصيرة، تحسست امتلاء بطنها التي ربربت ونزلتُ بيدي على مؤخرتها كانت قد ربربت هي الأخرى .

حللتُ شعرَها المرفوع كعكة فوق رأسها ورفعتها على الطاولة الخشبية، ونزلتُ على قدمها ألعقها، تغيرت لما تغير جسدها، القدم مرآة الجسد، من كثرة ما يدوس عليها المرء تنطبع عليها صورته.

عضضت باطن قدمها الذي ربرب هو الآخر، فسدتْ بقدمها الأخرى ظهري، وصلتُ بفمي حتى ركبتها فاستلقت هادئة.

صفعتها وأمسكت بشعرها وخبطت رأسها على خشب الطاولة فسمعتُ لغضاريف رقبتها طقطقة، صرختْ فانتصبتُ كآلة حادة، ونزعتُ جيبتها وقيدتها بها ونزلت على

شفرتيها أعضهما حتى قاربتا على الإدماء، صرختْ بشدة فانتشيتُ أكثر ولكمتها في فكها فرفستني بقدميها بعيدًا عنها.

لمت وركيها ونظرت إليّ مذعورة، كنتُ ألهثُ من المتعة، فبكت، توقفتُ عن اللهاث ونظرتُ إليها متعجبًا.

غاصت عيناها داخل عينيّ فعاد إليها الهدوء وضمتني، قرصتني بأسنانها خلف أذنيّ وهمست.

نزعت عني تي شيرتي القطني ومررت أناملها على ظهري وأدخلت أصابعها داخل بنطالي وعصرت إليتيّ بيديها .

استلقت ولعقت شفرتيها مرة أخرى، واحتضنتني بساقيها، واحدة بين فخذيّ والأخرى على ظهري.

دخلت داخلها فتفتحتْ بعنفٍ وشبَّكتْ أصابعها بأصابعي، دخلتها بقوة أشد فغرست أصابعها في لحمي، رأيتُ وجهها مبتلاً بعرقها وشعرها الأسود المموج محلولاً وملتصقًا فوقه، فحاولتُ خبط رأسها مرة أخرى بالخشب ليعاود الفعل بيننا نشوته المتبادلة، أمسكت يدي وأبعدتها برفقٍ، وضمتني إليها بساقيها بشدة فتفتحتُ بدوري، كنت أغيب وأعود إلى وعيي وهي تضمني داخلها بأطرافها الأربعة، كسلحفاة سقطت على ظهرها،

حتى ألتصق لحمي بلحمها، قذفتُ بداخلها ونمت عليها مسترخيًا، وحين فتحتُ عينيّ فتحت عينيها ونظرنا سويًا داخل عينينا وضحكنا .

لما نشف عرقنا على جسدينا كنا قد أتممنا التصاقنا، قمتُ عن صدرها فالتصق بعض شعر صدري بنهديها، ارتدينا ملابسنا وعاودتْ الشمس الظهور واختفي النونان والوشم عن المرآة .

قبلتني مودعة وعضت باطن شفتي السفلى بسنتيها الأرنبتين وهي تقول أن تلك علامتها عليّ، ثم أردفتْ :

- عشان تفتكرني كل ما لسانك يعدي عليها .

وودعتها ثم نزلتُ .

وأنا أسير عائدًا إلى بيتي عبَر لساني بحكم العادة على باطن شفتي السفلى فتذكرتُ قولها، حتى بعدما ضاجعتها وصارت أنثى متفتحة ظلت رومانسية بصورة مضحكة، مررت بلساني مرة أخرى فقهقهتُ عاليًا وجاءني صوتُ قهقهتي فأعجبتني القهقهة فهعهعتُ حتى مزقت الآفاق هعهعة وسقطتُ على ظهري من أثر الهعهعة .

حين فتحتُ عيني كنت أُسحل، ويعبر الآخرون على جسدي سبعًا ويرقصون من حولي وهم يرددون " جنّ أخيرًا كأخيه "، دعكتُ عينيّ فداس أحدهم على صدري قائلاً "

ادعك يا مجنون "، حاولت النهوض فركلوني قائلين " المجنون .. المجنون "، لكنني استطعتُ الجري هربًا منهم.

الشوارع المسفلتة أصبحت ترابية، وهم يجرون من خلفي قائلين " امشي من هنا يا مجنون "، والبيوت العالية أصبحت واطئة، وجدرانها الخراسانية صارت بطوب لَبِن، وعن يساري ترعة حولها هيش وبوص، اختبأتُ داخل البوص منهم، فأشعلوا النار فيه وهم يصرخون " اطلع بره يا مجنون " .

حاصرتني النيران فقفزتُ داخل الترعة، لمحني أحدهم وناداهم فقفز بعضهم من خلفي وظل الآخرون على البر يرجمونني بالحجارة، عُمتُ حتى وصلت خص العابدين، دخلته فاستقبلني الشيخ الأكبر الخارج للتو من خلوته وفتح عباءته فاحتميتُ بصدره، ضمني وأخرجني من عباءته إلى بيتي فاستلقيت على سريري ولففتُ جسدي بملاءتي أحتمي بها، واستغرقتُ في النوم .

٢٩

كان نومًا هادئًا، أسودًا دونما أحلام حتى تقلبتُ ونمتُ على ظهري .

استرخيتُ وأحسستُ أن من تحتي مرتبة وثيرة مبتلة تعلو وتهبط، ضغطتُ عليها فضغَطت عليّ وأحسستُ بشيء يدخل في شرجي، تحسستُ المرتبة كان لها قدمان وذراعان وأعضاء مبتلة بالعرق .

حاولت التقلبَ على جنبي فكتفني ذراعاها، وتصلب الشيء الداخل في شرجي فآلمني، مددتُ يدي أتحسسه فوجدتُ قضيباً منتصباً يدخلني .

نازعتُ لأتغلب عليه فلم أقدر وظل بداخلي حتى قذف جمرته وسرتْ في جسدي، وأخرج قضيبه الذي سار مسنناً ومر على ظهري يشقه شقين وحاول إدخال ما تبقى من ماءه في فمي .

قاومت وهو يحاول إبلاعي ماءه، قاومت لكنه تغلب عليّ ووضع قضيبه في فمي، عضضته ليسحبه، فقطعتُ رأسه وبلعتها .

وقف ونظر إليّ وقهقه ثم اختفى، وأخذتْ رأس قضيبه تسري من في فمي حتى التقت قذفته التي أدخلها من شرجي وأصبحت نارًا تلتهمني، خَبَطتُ بيديّ عليّ أطفأها فانكمشت وصارت كرة صغيرة من اللهب، عبرتْ عبر خط انقسامي كما رسمه .

قمت عن سريري وجريتُ فَزِعًا منها دون أن أنظر خلفي، فلما نظرتُ سقطتُ على جانبي الفارغ، كنت أجري بنصفي الأيمن بينما سقط مني الأيسر وتركته على السرير.

صرختُ فأيقظتني صرختي، اعتدلتُ في سريري ووضعتُ يدي اليمنى على جانب وجهي الأيمن، ويدي اليسرى على جانب وجهي الأيسر، وتأكدتُ أنهما لا زالا في مكانيهما، ونسيتُ وضعهما في المنتصف .

جسدي ككل الأجساد البشرية، ورقة مستطيلة لا تنطبق إلا بثنيها طوليًا بينما منحتها الطبيعة خط انثناء عرضي لا ينطبق جزءاه، استلقيتُ بجسدي مرة أخرى بعدما أمنتُ على مكان نصفيه، فأحسستُ له بوطأة كما لو أن وزني قد تضاعف فجأة، اعتدلتُ مرة أخرى ومررت سريعًا بيدي اليمنى على جانبي الأيمن فأطمأن قلبي، واليسرى على جانبي الأيسر فأطمأن قلبي، ومررتُ بكلتي يديّ على أنفي ففزعتُ.

في المنتصف، مكان ما رأيتُ كرة النار تقسمني، تَشّكل نصفين مكتملين، وانقسمت إلى أثنين .

لكل نصف نبت آخرٌ، فصار لي وجهان بأربع عيون كلٌ منهن تنظر للطرف الثاني من الزوج الآخر، اليمين الخارجية تنظر لليسار الداخلية، واليمين الداخلية تنظر لليسار الخارجية، وكل وجهٍ ينظر للآخر ويحدق .

نزلتُ عن سريري وجريتُ، أصبح عندي الآن أربع أرجل لم أعتد بعد على ضبط إيقاعهن فتعثرتُ ووقعتُ على ظهري ذي السلسلتين فآلمتاني، ومررتُ بيديّ

الخارجيتين علي يديّ الداخليتين وعلى صدريّ وعلى بطنيّ، من كل زوجين اثنين، وعندما نزلتُ بأياديّ إلى الأسفل كان قضيبي قد أصبح قضيبين أحدهما أجوفٌ وأولهما يدخل في الآخر.

قمتُ من على سلسلتيّ الظهريتين وصافحت بكل يدٍ خارجية أختها الداخلية، وأنا أقهقه بوجه وأنهنه بالآخر.

دخلتُ حمامي مستندًا بأياديّ الأربع لأتزن بأقدامي الأربع، ونظرتُ إلى المرآة ورأيت حازمًا كما أعرفه، ونظرتُ بعيني اليمنى إلى يسراي فبقى حازمٌ كما أعرفه، وبيسراي إلى يمناي فبقى حازمٌ كما أعرفه، مررت بيديّ الخارجيتين على بطنيّ وعلى صدريّ فلم يبق حازمٌ كما أعرفه.

أسفل المرآة على الرف الخشبي الذي أضع عليه ماكينات الحلاقة وكريمات الحلاقة وصابونًا برائحة وصابونًا بلا رائحة، وجدتُ ورقة مكتوب عليها اسم بخط أحمر وحروف مبعثرة معكوسة .

سحبت قدميّ الداخليتين وجريت بالخارجيتين حتى غرفتي، أحضرت ولاعتي وعدت إلى الحمّام، أشعلتُ نارًا كبيرةً في قاعدة الحمام ورميتُ فيها الورقة فانطفأتْ النار وأصبح رمادها طينيًا لزجًا.

تناولتُ الرماد اللزج ودعكتُ به جسدي ورميت منه على عين المرآة وأنا أردد ذلك الاسم المكتوب في الورقة المحترقة، ولما أتممتُ الترديد سبعًا رجع جسدي واحدًا .

عاد جسدي سيرته الأولى فعدتُ إلى غرفتي، وارتديتُ ملابسي وأنا أتحسس أعضائي. نظرتُ إلى برج الكنيسة القديمة، وخاطبت الناقوس، وأنا لا أنتظر منه ردًا، فرد عليّ، سألته فذكرني بما أُمليّ عليّ وأنا صاعد لملاقاة نورا، فتذكرته، وجلست إلى طاولة الصالة الخشبية أكتبه .

كتبت ما أمليَ عليّ من قبل ونسيته، قرأته وأعدتُ قراءته حتى حفظته، ومزقتُ الورقة ونثرتُ مزقها، فداعبتْ الورقة القديمة ذات الطلاسم جيبي واهتزت داخله، أخرجتها ونظرتُ إليها، انحلتْ سطورها القديمة المتشابكة وصارت مقروءة، بدأتُ في قراءة كلماتها فرن هاتفي .

أتاني صوته فعرفته، طلب مني زيارته في منزله فوافقت، سألني :

- معاك العنوان؟ .

فنظرتُ إلى الورقة وقرأتُ سطورها .

- أيوة معايا .

قلت له .

- طيب أنا مستنيك .

قال لي ثم أغلق الخط .

قمت عن طاولتي وأكملتُ ارتداء ملابسي، درتُ في شقتي دوراتي المعتادة لأتأكد ألاّ أحد معي يراقبني، وأغلقتُ أبوابها ثم مضيتُ .

قفزاً نزلت سلم منزلي، وقبل عبوري عتبته وبينما يتسلل إليّ ضوء الشمس عبر بوابته الحديدية يقسمني نصفين، وقفتُ، تلفتُّ عن يميني فرأيتُ مدخل الشارع عن يميني خاليًا من العابرين، وتلفتُّ عن يساري فرأيتُ أحدهم قادمًا نحوي .

يخطو ويقترب فأتريث قبل اجتياز العتبة، يدنو فأخطو إلى الخلف، يستند على الجدار قرب الباب وينوي الدخول، فأرجع لأقف في ظل بئر السلم كي يصعد إلى الأعلى دون أن يراني، يميل ليدخل من الباب فألتصقُ بالحائط، حابسًا أنفاسي .

رفع يده اليمنى ووضعها على ضلفة الباب الحديدي، فنزل ظلها وجعل المدخل معتمًا رغم ضوء النهار، استند ولم يدخل، اتكأ وسمعتُ وطأة إتكائه على المفاصل القديمة الصدئة، فزدتُ في حبس أنفاسي ولم يدخل، مال على الباب ميلاً ومد يده الأخرى، خلع حذائه ونفض عنه التراب ومضى .

بقيتُ عند حد الباب ورميت ببصري خلفه أعد خطواته، تركت بيني وبينه ست خطوات ثم سرت خلفه، وعند مدخل الشارع انعطفَ ناحية اليمين فانعطفتُ ناحية اليسار، مضيتُ وعاودت الالتفات ناحيته فظل يمشي دون أن يلحظ التفاتي، ولم يلتفت.

بيني وبين منزل عاصم الأتوبيس، وبيننا موعد لن أخلفه، وبيني وبين نفسي أدخر له فعلاً لا يدري عنه شيئًا ولا يدري الآخرون عنه شيئًا، وفعلي هو ما سيفعله بي لو أراد مثل فعلي، وفعله هو ما سيفعله الآخرون لو أرادوا مثل فعله.

جاء الأتوبيس مسرعًا ولحقته قفزًا، وقبل وصولي إلى محطتي عاودت القفز لأكمل طريقي إلى منزله مشيًا وأضلل المراقبين.

رفعتُ عينيّ إلى السماء فرأيتهما معًا، ساطعة كانت الشمس، بدرًا كان القمر، دعكت عينيّ وأرجعت البصر فأنقلب إليّ البصر بالخبر، في سمائي اجتمع الشمس والقمر.

سمعت خطوًا من خلفي، نظرتُ بطرف عيني فرأيت أحدهم يسير في أَثَري، يرتدي قميصًا وبنطلونًا قماشيًا وحذاءً جلديًا، كما كان يلبس الآخر قرب منزلي، " لا بد أنهما زملاء في مراقبتي "، انحنيتُ أعقد رباط حذائي ومررته فأصبح أمامي، أحسَ بذلك وتوقف فانعطفتُ في شارع جانبي.

ألصقتُ بصري بأسفلت الطريق، رأيت لي ظلين، تحتي ظل الشمس العمودية من فوقي، وأمامي ظل القمر الساطع من خلفي.

وأعد خطواتي فأخطئ في العد، أرفع بصري فأبصر أبصار الآخرين ناظرة إليّ، تحسستُ وجهي، لا شيء في وجهي، تحسستُ ملابسي، لا شيء في ملابسي، تحسست ذراعيّ، لا شيء في ذراعي، مررت بإصبعي الأكبر على أطراف أصابعي الأصغر، لا شيء في أصابعي، أمر أمام الآخرين فيرفعون عيونهم عن أشيائهم ويحدقون فيّ.

أسرع خطوي، فيتبعونني بأبصارهم، أُهرول فيُخرج بعضهم هواتفهم ويضعونها على آذانهم، أقارب على الاصطدام بأحدهم، يرفع يده نحو وجهي، فأميل بوجهي إلى الخلف وأرفع يدي لأدفعه، فيكمل رفع يده حتى رأسه يسند ما يحمله.

وصلتُ عند بيت عاصم ودرت حوله دورتين حتى أمنت من المراقبة، ثم دخلته.

على يمين المدخل لوحات خشبية عليها أسماء السكان، بحثت عن اسمه فوجدته وعرفت شقته، سرت حتى المصعد فوجدت بابه مغلقًا، خطوتُ نحو السلم ووضعت قدمي على أول درجاته فانفتح باب الشقة الأولى وأطلت منه سيدة، فعاودت الاختباء قرب المصعد، في جيبي تراقص المفتاح القديم ذو الوشم الذي كان بصحبة الورقة القديمة

ذات الطلاسم، مددتُ يدي لأخرجه فقفز من جيبي ورشقَ في ثقب باب المصعد، أدرته فيه فدار فيه وفُتح البابُ المغلق .

ضغطتُ زر الطابق الثالث وأخذ المصعد في الصعود وأنا أعد الطوابق، الأول ثم الثاني، وبين الثاني والثالث تعطل، ضغطت أزراره فأبت ضغطًا، عاودتُ الضغط على الأزرار فانطفأتْ الأنوار داخله وانطفأتْ الأنوار خارجه وعَلّقْتُ في المصعد .

سمعت صوتًا أحسستُ بعده رجةً في المبنى وسقط بي المصعد إلى الأسفل، نزل على الأرض بهبدة، أسرعت أفتح الباب فصعد بي المصعد مرة أخرى وعند الطابق الثالث توقف بهبدة، مددت يدي لأفتح الباب فوجدته لوحًا خشبياً به نافذة زجاجية، التفتُّ إلى يميني فوجدتُ لوحًا خشبيًا، التفتُّ إلى يساري فوجدت لوحًا خشبيًا، خبطت اللوح الذي أمامي فاهتزتْ نافذته وبان في زجاجها البابُ من خلفي، درت فوجدت الباب الذي كان أمامي قد أصبح خلفي، فتحتُ الباب الخشبي فانطفأ نور المصعد، ودفعتُ الباب الحديدي فظل مغلقًا، هزته فسمعتُ صوت أكرته الحديدية، فتحتها فانفتح.

أمامي ظهر باب، دخلته فإذا به يفضي إلى ممر لولبي، دخلته فإذا هو بقاعٍ أسودٍ صفصفٍ، درتُ فيه حتى وصلتُ عند الباب الخلفي لشقة عاصم.

مددتُ يدي إلى المفتاح ذي الوشم ودرتُ به في ثقب البابِ فانفتح، سحبته من الباب فصار قلماً حبرًا بريشة حديدية مسننة.

درتُ بعينيّ في الشقة، كان الضوء يدخلها من نوافذها الحديدية المشغولة فيكسوها بتدرجات اللون الأحمر، وبان على البعد باب موارب .

فتحت الباب ورأيت عاصمًا جالسًا خلف مكتبه الخشبي ينتظرني .

وقفتُ أمامه والضوء الأحمر يغمرنا، وكأننا كنا رسمًا في لوحة رأيتها سلفًا ولا أذكرها، أخرجت من جيبي القلم فانفتح في جبهته ثقبٌ وضعت فيه القلم، ورجعتُ إلى الخلف خطوتين، نظرتُ إليه ثم ابتسمت.

سحبتُ من رأسه القلم ووضعته في جيبي، وعند باب شقته الأمامية سقط الضوءُ على وجهي من المصعد الخشبي النازل من الأعلى، تأنيتُ حتى نزل المصعد، ثم نزلت وخرجت من منزله .

غاب القمر وغابت الشمس واكتست الأجواء بضوءٍ لبنيٍ خفيف، نظرت إلى الوجوه التي كانت تراقبني فوجدت الوجوه باسمةً، ألقيتُ على أحدهم التحية فرد بأحسن منها ودعاني للجلوس، أخرجتُ من جيبي القلم فوجدته مُنتصباً برأس حادة مسننة، ورن هاتفي .

- حازم .. محتاجة لك .

جاءني صوتها .

- انتي فين ؟ .

سألتها .

- مش مهم لازم أشوفك، بموت يا حازم بموت .

- أجي لك ؟ .

- أنا اللي هاجي لك .

ردت وأغلقتُ الخط فسرتُ عائدًا إلى منزلي .

عند منزلي تغيرت أشكال الأشياء، وقفتُ أمام بوابته الحديدية فصارت خشبية عالية منتهية بنصف دائرة تصنع مع خط ضلفتيها رسم الصليب .

دفعتها فهالني صوت مفاصلها المُصِم وكأنها لم تفتح منذ الأزل، دخلتُ فعاودت الرجوع، تواربتْ فأنفذت ضوءًا قليلاً، لمحتُ معه ظلالاً لدرجات سلم حديدي عملاق، ولم يكن سلم منزلي حديديًا، ارتفعتْ الجدران وصار عليها نوافذ بحديد مشغول وزجاج أزرق، وفي السقف حروفٌ منقوشةٌ، ملتوية ومشبوكة، وجملة فرنسية قرأتها سابقًا هكذا

وياليتني كنت قرأتها هكذا Jeu de jeux est jeu de la mort، Jeu de jours est la jeu de mots .

وصلتُ عند باب شقتي فوجدته خشبياً بحديد مشغول ولم يكن كذلك من قبل، دفعته فتوارب وبدت منه ظلال زرقاء لمحت معها بابًا مواربًا في آخر الطرقة .

سرت في الطرقة فدخل من النوافذ الحديدية المشغولة ضوء البدر وكسا المكان بالأزرق، فتحتُ باب الغرفة فوجدت جدرانها سوداء ، في وسطها سرير خشبي واطئ مسجيٌ عليه ملاءة بيضاء، رفعت الملاءة فوجدت جيجي تحتها .

نظرت إليها فعرفتها وعرفتني رغم اختلاف شكلها، صار شعرها أسودًا لامعًا بزرقة، وعيناها رماديتان وجبهتها بيضاء شاحبة، وعليها ثياب زرقاء باهتة .

احتضنتها فاحتضنتني، ضممتها بشدة حتى شعرت بثدييها ينهرسان على صدري، فضمتني بشدة حتى شعرتُ بأضلاعي تدخل في أضلاعها، خلعت عني ملابسي وقَرَصت ظهري بأصابعها، قبلتها وعضضتُ لسانها وشفتيها فاستلقت على ظهرها .

خلعتُ عنها ملابسها ودغدغتها بأسناني على طول جسدها، فأسمر لون جلدها وصار برونزيًا، وضعت بظرها في فمي ولعقته فعاد شعرها ذهبياً محمرًا .

وضعتُ قضيبي بين شفرتيها ومصصت حلمتيها المنتصبتين وقبضت على إليتيها بكلتي يديّ فصرخت من اللذة، وعادت عيناها عسليتان كما كانتا .

قذفتُ بداخلها ولم نشبع، أعدنا الكرة، دخلتها وهي على بطنها ووضعت ساقيها على كتفيّ ألحس كعبيها، وقذفت على خصرها فانمحى الوشم من عليه، وسطع القمر بدرًا ولم نشبع.

فعلنا للمرة الثالثة، وارتخى جسدانا واختلطا، وما عدت اعرف يدي من يدها، أحرك يدي تتحرك يدها، أرمش فيهتز جفنها، بعد ساعتين انتهينا، وصرتُ في قمة التفتح وبان على جلدي قطرات بلورية صلبة.

أرقدتني فوق ظهري ورقدت فوقي تلعق قضيبي وتلحسه وتمصه، احمر شعرها وهي تمرر أصابعها وتغرسها في لحمي فيتفتح، انطبقت بجسدها فوقي فانفتح شباكٌ من خلفنا دخل منه ضوء أزرق وصارت جدران الغرفة بيضاءً بزرقة، وعلى السقف انطبع الوشم الذي انمحى من على خصرها .

اشتبكت بلحمي ووضعتْ قضيبي بداخلها، ووضعتْ لسانها داخل فمي، نظرتُ فإذا الوشم ينزل إلينا، اشتبكت أصابع يديها بأصابع يديّ، وأصابع قدميها بأصابع قدميّ،

وعانتها الملساء بعانتي المشعرة، واشتبكت حولنا الملاءة البيضاء وصعد منها ضوء أزرق شفاف غمرنا، ومن تحتنا انفتح قعر السرير.

نظرتُ فإذا تحتنا ضوء لا حد لحدوده، تشبثنا سويًا وقفزنا داخله وغبنا في الضياء.

مصر الجديدة

٤ مارس ٢٠٠٨- ٢٦ سبتمبر ٢٠٠٨

